أثر التشيع في الأدب العربي

تأليف

محمد سيد كيلاني

الكتاب: أثر التشيع في الأدب العربي

الكاتب: مُحَمَّد سيد كيلاني

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

كيلاني ، مُحَمَّد سيد

أثر التشيع في الأدب العربي / مُحَمَّد سيد كيلاني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٣ – ٢٦٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٥١ / ٢٠٢١

أثر التشيع في الأدب العربي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء الكتاب

إلى أديب الشرق الأستاذ الكبير كامل كيلاني.

عرفتك منذ أعوام فلمست فيك الوفاء والإخلاص وطهارة السيرة ونقاء السريرة. وأعجبني منك تفانيك في خدمة الجيل الجديد بما تخرجه من قصص رائعه في أسلوب عربي مبين ، سيكون لها من غير شك أبعد الأثر لا في مصر وحدها ، بل في الشرق العربي بأجمعه. فإليك يامنشيء الجيل أهدي كتابي هذا.

المخلص

مُحَمَّد سيد كيلاني

مقدمة

هذا بحث فيما أحدثه التشيع من أثر في الأدب العربي، بدأته منذ قيام علي بن أبي طالب بحركته، وانقسام المسلمين إلى حزبين كبيرين: حزب يتشيع لعلي، وحزب يقف وراء معاوية، ثم حزب ثالث لا يرضى عن هؤلاء ولا عن أولئك، وهو حزب الخوارج.

وقد رتبته على أربعة أبواب، وخصصت أول فصل من الباب الأول للكلام على الخلافة؛ وأتيت في الفصل الثاني بنبذة عن أشهر فرق الشيعة العلوية ومعتقداتها، ليسهل بذلك على القاريء فهم ما جاء في الشعر الشيعي من مذاهب وآراء، كأقوال بالرجعة وعصمة الأئمة والمهدي المنتظر وغير ذلك من العقائد التي أوردها شعراء تلك الطائفة في كثير من شعرهم.

وكان العلويون والأمويون والخوارج يتراشقون بالكلام، كما كانوا يتطاحنون بالسيوف والسهام، فأخذ الخطباء والشعراء والكتاب يدافع كل منهم عن الذي ينتمي إليه، ويذود عنه، ويرد على مطاعن أعدائه ويحرض على الكفاح والجهاد. فترى في الفصل الأول من الباب الثاني أثر التشيع واضحاً إلى أبعد حد في النثر: في الخطابة، والرسائل، والحديث، والقصص، وانتحال القول. وفي الفصل الثاني من هذا الباب تكلمت على أشهر خطباء الشيعة مع دراسة تحليلية لكتاب نهج البلاغة.

وتناولت في الفصل الأول من الباب الثالث الكلام على مظاهر انتحال الشعر عند الشيعة. وخصصت الفصل الثاني للحديث عن أغراض الشعر عند هؤلاء القوم. فمن مدح لآل البيت بدأ ساذجاً بسيطاً لا أثر للتكلف فيه، ثم

أخذ يتدرج في الغلو شيئاً فشيئاً حتى جاء ابن هانئ الأندلسي فظهر في شعره نوع من المديح لا عهد للمسلمين به من قبل. إلى رثاء حار منبعث من أعماق القلوب. فقد حدث أن قتل علي ثم قتل ابنه الحسين من بعده على صورة مؤلمة. ثم تتبع الأمويون والعباسيون من بعدهم العلويين، فنكلوا بهم أشنع تنكيل، ومثلوا بهم أفظع تمثيل، فحرك ذلك عواطف كثير من الشعراء، فأنشأوا قصائد قوية فيها لوعة وأسة، وحزن عميق وألم شديد، وإلى غير ذلك من الأغراض التي تناولها شعراء الشيعة وهي مفصلة كما تراها في موضعها من هذا الكتاب.

وأتيت في الباب الرابع بتراجم مختصرة لعشرة من شعراء الشيعة، بدأتهم بالكميت، وختمتهم بابن هانئ الأندلسي، وبهذا ينتهي الكتاب.

محمد سيد كيلاني

القاهرة في أول مرة مايو سنة١٩٤٧

الباب الأول

الفصل الأول

مشكلة الخلافة

(١) القدماء والتاريخ

اعتاد بعض قُدامى المؤرخين أن يسلكوا في كتابة تاريخ الصحابة مسلكاً عجيباً، فتراهم يطمسون بعض الحقائق طمساً غريباً، ويضللون الناس تضليلا بإغراقهم في المدح والثناء على هؤلاء الرجال بحق وبغير حق حتى يتوهم القراء أن الصحابة أشخاص مقدسون لا يجوز عليهم الخطأ؛ يفعلون ذلك ظانين أن كتابتهم التي يكتبونها على هذا النحو تقربهم من الله زلفى، وتضمن لهم الجنة... ولا ريب في أنهم مخطئون، ولا عجب إن كانت كتابتهم خلوا من الروح العلمي الصحيح، لا فائدة منها ولا خير فيها، تقرؤها فتشعر بأنك تطالع قطعة من المديح، لا أكثر ولا أقل؛ فتحميص الحقائق التاريخية، وتحليل أعمال الأشخاص، ووضع الأمور في نصابها، والنظر إلى الموضوع في نزاهة وإخلاص، وتحري الصدق والتجرد من الأهواء، وتحكيم العقول بدلا من الميل مع العواطف، كل هذا من الأمور التي لم يعرف القدماء إليها سبيلاً، اللهم إلا المعتزلة الذين كانوا مطبوعين على الجرأة والصراحة.

وفي هذه الأيام نجد كثيرين يسلكون مسلك القدماء فيما يكتبون، يرددون ما خطته أقلام أسلافهم من غير بحث ولا تحقيق. وإن أنت حاولت أن تتبع طريق العلماء الباحثين، وتحكم عقلك فيما لم يعتادوا تحكيم عقولهم في، رموك بالكفر. واتهموك بالإلحاد، وانهالوا عليك بالشتائم والسباب...

وسواء رضي هؤلاء أو غضبوا، فإني أوثر أن أنهج نهج العلماء المحققين الذين يضعون الحقيقة فوق كل اعتبار.

(٢) لمن الخلافة؟

ما كاد النبي يلفظ النفس الأخير حتى تحركت أطماع[١] بعض الصحابة في منصب الخلافة، وأظهر بعضهم لبعض العدواة والبغضاء، وتكشفت النقوش عما كانت تنطوي عليه من أمور كانت مستورة مدة حياة النبي، وظهرت بعد ساعات قليلة من وفاته.

لقد اجتمع الأنصار عقب وفاة الرسول إلى سيدهم سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعده وبايعوه خليفة. وما كاد أبو بكر وعمر وأبو عبيدة يسمعون بهذا النبأ حتى أسرعوا إلى مكان اجتماعهم، ودار بينهم وبين الأنصار جدال شديد ونقاش عنيف؛ فالأنصار يقولون إنهم نصروا النبي وآووه، وساعدوه وأزروه، وكافحوا من أجله ومن أجل الدين كفاحاً شديداً، وعلى ذلك يجب أن يظفروا بهذا المنصب جزاء وفاقاً لهم على ما بذلوا من جهود. ووقف أبو بكر وعمر يردان على الأنصار الحجة على ما بذلوا من جهود. ووقف أبو بكر وعمر يردان على الأنصار الحجة بالحجة ويدفعان البرهان بالبرهان، ويذودان عن حق المهاجرين في الخلافة؛ فالمهاجرون وهم الذين احتملوا الاضطهاد والعذاب، وصبروا وصابروا وضحوا بأنفسهم وأرواحهم في سبيل الدين؛ وهم يفضلون الأنصار– كما يزعم أبو بكر– بأسبقيتهم إلى دخول الإسلام.

---

(١) ذكر ابن قتيبة أن أبا بكر قال: والله إني لشديد الوجع، ولما ألقى منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي. إني وليت أمركم ولست خيركم في نفسي، فكلكم ورم أنفه إراد أن يكون هذا الأمر له وذلك لما رأيتم الدنيا قد أقبلت.

قال الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال عمر هيهات [1] لا يجمع سيفان في غمد واحد: والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولي الأمر منهم، لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة، والسلطان المبين. من ينازعنا سلطان مُحَمَّد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل، أو كتجانف لإثم أو متورط في هلكه.

فأنت ترى أن عمر في كلامه هذا كان أول من أحيا العصبية الجاهلية في نفوس المسلمين. وترى كذلك أن عمر خول نفسه الحق في الكلام عن العرب بأجمعهم حين يخاطب الأنصار بقوله: «والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم» وأمر ثالث تلحظه في كلام عمر وهو أنه جعل النبي ملكاً له سلطان وله ميراث، وجعل لأبي بكر الحق في حيازة هذا السلطان، وفي الاستيلاء على هذا الميراث.

ولما كان الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وكان بين هاتين القبيلتين عداوة شديدة، وحروب طاحنة في العصر الجاهلي، خشيت إحداهما بأس الأخرى إذا خلص لها الأمر؛ وعلى هذا وافقت الأوس على مبايعة أبي بكر وتبعتها الخزرج، عدا سيدها سعد بن عبادة الذي أهان أبا بكر إهانة شديدة، بل أهان المهاجرين جميعاً. وأبى أن يبايع أبا بكر واعتزل المسلمين، ورحل إلى الشام في أيام عمر ومات هناك.

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر من الأنصار دخل المسجد فرأى قوماً آخرين لا تقل أطماعهم عن أطماع الأنصار. رأى بني أمية مجتمعين حول

---

(1) الأمامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٢ طبع في مصر مطبعة النيل ١٩٠٤.

عثمان، وبني زُهرة مع عبد الرحمن بن عوف، وبني هاشم مع علي بن أبي طالب، فقال عمر وقد عرف كل ما يجول بخاطر كل منهم: ما لكم مجتمعين حلقاً شتى، قوموا فبايعوا أبا بكر، فقد بايعته وبايعه الأنصار. فقام عثمان ومن معه فبايعوه، وقام عبد الرحمن بن عوف ومن معه فبايعوه أيضاً.

وأما علي والعباس ومن معهما من بني هاشم فانصرفوا إلى بيوتهم ومعهم الزبير بن العوام، فذهب إليهم عمر في عصابة، فقال انطلقوا فبايعوا أبا بكر فأبوا، وخرج الزبير بن العوام بالسيف فقال عمر «عليكم الرجال فخذوه»، فوثب عليه واحد من العصابة فأخذ السيف من يده وضرب به الجدار، وأخذوه وانطلقوا به وأرغموه على المبايعة. وذهب بنو هاشم فبايعوا وأخذوا عليا ليبايع فقال «أنا أحق[1] بهذا الأمر منكم، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً، ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان مُحَمد منكم فأعطوكم المقادة، وسلموكم الإمارة؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار، فنحن أولى برسول الله حياً وميتاً. فأنصفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون . فقال عمر «لست متروكاً حتى تبايع» فقال له علي «أحلب حلبا لك شطره، وشد له اليوم يردده عليك غداً» عنى بذلك ساعده اليوم في الحصول على الخلافة ليوليك بعده على المسلمين. ثم قال: «والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه» فقال أبو بكر «إن لم تبايع فلا أكرهك». وتكلم أبو عبيدة بن الجراح ونصح عليا بالمبايعة، ولكن عليا قال «الله الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان مُحَمد في العرب من داره وقعر بيته إلى دوركم وقعور بيوتكم». ثم ما كان منه إلا أن حمل زوجته فاطمة على دابة

---

(١) الأمامة والسياسى لابن قتيبة ص ١٨ طبع مصر ١٩٠٤ مطبعة النيل.

وأخذ يطوف بها في مجالس الأنصار تسألهم النصرة فكانوا يقولون لها: يا بنت رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل.

فمما تقدم ترى أن عمر سلك طريقاً غير رشيد، فاحتج على الأنصار بأنهم أسبق الناس إلى الإسلام مع أنه ليست هناك أدنى علاقة بين أسبقية المرء إلى الإسلام وبين صلاحيته للحكم. ثم إنه احتج عليهم بقرابة المهاجرين للرسول. ومع ذلك فقد كان واجب العدل يقضي بأن تكون الخلافة لعلي بن أبي طالب ما دامت القرابة اتخذت سنداً لحيازة ميراث الرسول. لقد كان العباس أقرب الناس وكان أحق الناس بالخلافة، ولكنه تنازل بحقه هذا لعلي. فمن هنا صار لعلي الحق وحده في هذا المنصب. ثم إن عمر هدد بني هاشم فذهب إليهم في عصابة، وحمل الزبير وأرغمه على البيعة كما تقدم، وكاد يقتل عليا.

أما علي فإنه رفض مبايعة أبي بكر مع أنه رأى الأمة كلها قد بايعت، فكان واجباً عليه أن ينكر ذاته، ويسمو بمصلحة الإسلام والمسلمين فوق الاعتبارات الشخصية. ثم كان يجب عليه أن يسلم بالأمر الواقع ويذعن لما أذعن له غيره من المسلمين.

ومما يؤخذ عليه أيضاً أنه حاول أن يثير نيران الحرب بين المسلمين، فذهب إلى الأنصار حاملاً زوجته على دابة كما أسلفنا سائلا إياهم النصر. تُرى، ماذا كانت حالة الإسلام والمسلمين لو استجاب الأنصار لدعوة علي وقاموا معه في وجه أبي بكر؟!

(٣) الشيخان

والظاهر أن أبا بكر وعمر قد وضعا هذه الخطة وفكرا فيها قبل وفاة الرسول. ثم نفذاها فيما بعد بدقة وإحكام فكتب لها النجاح والتوفيق. وليس

مما يعقل أن يكون قول أبي بكر «نحن الأمراء وأنتم الوزراء الخ» وليد الساعة. وأنا أرى أن القوم فكروا في هذا الأمر والرسول لا يزال على قيد الحياة. وربما كان تفكيرهم فيه بعيد غزوة أحد التي تعرض النبي فيها للموت[1]. والشيعة تزعم أن النبي عهد إلى علي بالأمر من بعده. وهذا زعم باطل لأن عليا لم يستشهد به على صحة دعواه.

وسواء أكان الشيخان أبو بكر وعمر وصلا إلى منصب الخلافة بحق أو بغير حق، فإنهما من غير شك قد خدما الإسلام خدمة لا نقدر، بقى أثرها إلى اليوم، وسيبقى إلى ما شاء الله. فلأبي بكر الفضل في تثبيت أقدام الدين في شبه الجزيرة بقضائه على المرتدين ومدعي النبوة.

وما كاد ينتهي من ذلك حتى وجه العرب نحو الغزو والفتح، فترتب على ذلك أن خرج المسلمون مجاهدين في سبيل الله ففتحوا فارس والشام. ثم مات أبو بكر. واعترافا منه بفضل عمر عليه في الوصول إلى مقعد الحكم عهد إليه بالخلافة من بعده. والظاهر أن أبا بكر كان قد وعد عمر بهذا فبر بوعده. وفي أيام عمر تم فتح الشام والاستيلاء على مصر وغنم المسلمون غنائم جمة. ولعل من الصواب أن نقول إن عمر كاد يقف بالفتوح عن فارس وبلاد الشام. لقد تردد كثيراً في فتح مصر. وأخيراً بعد إلحاح شديد من عمرو بن العاص وافق على إرسال جيش صغير واشترط على عمرو أنه سيرسل إليه خطاباً إن وصله وهو خارج الحدود رجع، وإن وصله وهو داخل الحدود تقدم وطلب العون. ولما كان ابن العاص مخلصاً في الجهاد في سبيل الله فقد أخفى رسالة عمر التي وصلته وهو خارج حدود مصر، ولم يفتحها إلا بعد أن أوغل في الديار المصرية.

---

(1) ذكر أبن قتيبة وغيره من المؤرخين أن العباس لقي علياً فقال له «إن النبي يقبض فاسأله إن كان الأمر لنا بينه وإن كان لغيرنا أوصى بنا خيرا» ولكن عليا لم يسأل النبي عن ذلك.

ثم أن عمر فعل فعلة سياسية جريئة وهي عزله خالد بن الوليد من قيادة الجيوش العربية في الشام في أثناء اشتداد المعركة بين المسلمين والروم. لقد كان هذا العمل جديراً بأن يقضي على وحدة المسلمين ويؤدي إلى انهزامهم الشنيع أمام الأعداء. ولكن خالد بن الوليد أثبت أنه رجل كبير العقل والنفس، فوضع مصلحة الإسلام فوق كل اعتبار، وأخفى نبأ عزله حتى إذا ما تم النصر للمسلمين سلم القيادة إلى أبي عبيدة بن الجراح وقبل أن يعمل تحت إمرته.

ومع كل ما قدمنا فإن هذين الشيخين لا يستحقان تلك المطاعن الكثيرة التي كالها لهما شعراء الشيعة بغير حساب. لقد كانت أيام حكمهما من أسعد الأيام التي مرت على المسلمين وكان عصرهما من خير عصور الإسلام. فإذا ما ذكرنا اسميهما وجب علينا أن ننحني إجلالا واحتراما لهما، فإنهما جديران بكل تقدير. ولكن شعراء الشيعة لم ينظروا إلى المصلحة العامة، بل نظروا إلى المصلحة الخاصة، مصلحة علي، فملئوا أشعارهم بالشتائم والسباب، وألصقوا بهما كثيراً من المثالب والنقائص بل رموهما بالكفر والخروج على الدين. من أمثلة ذلك ما روى أن المهدي جلس يوماً لتوزيع الأعطية على من يستحقها من المسلمين، وكان في المجلس نفر من آل الخطاب ينتظرون نصيبهم من العطاء، وبينما القوم جلوس إذ دخل على المهدي يحمل إليه رسالة فلما فتحها وجد بداخلها قصيدة بعث بها إليه السيد الحميري جاء فيها:

قُلْ لابن عباس سَمِيّ محمدٍ ... لا تعْطِيَنَّ بني عَدِيّ درهَماَ
احرْم بني تَيْمِ بنِ مُرَّةَ إنَّهم ... شَرُّ البريَّةِ أوَّلاً وَمُقَدّما
منعوا تُرَاثَ محمدٍ أَعَمامَه ... وابنَيْه وابنَتَه عَدِيلَةَ مَرْيَمَا
وتأَمَّرُوا من غير أن يُسْتَخْلَفُوا ... وكَفَى بما فعلوا هنالِكَ مأثَمَا
لم يَشْكُرُوا لمحمد إنْعامَه ... أَفَتَشكُرون لغيره أَنْ أَنعَمَا

والله مَــــنَّ علـــــيهمُ بمحمــــــدٍ وهَـــدَاهُم وكَســا الجُنــوب وأَطعَمَـــا
ثم انْبَــــــرَوْا لِوَصــــــيّة وَوَلِّيَّـــــهِ بالمنكــــرات فجرَّعـــــوهُ العَلْقَمَــــا

قال صاحب الأغاني: وهي [1] قصيدة طويلة حذف باقيها لقبح ما فيه فلما قرأها المهدي أمر بقطع العطاء، فقطعه وانصرف الناس ودخل السيد إليه، فلما رآه ضحك وقال «قد قبلنا نصيحتك يا إسماعيل[2] ولم نعطهم شيئاً».

(٤) عثمان

كان من سوء حظ المسلمين أن انتخب عثمان بن عفان خليفة، فلم يكن له من الصفات ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الخطير. حقاً! لقد جاهد عثمان في سبيل جهادا مشكوراً وضحى بكثير من أمواله لإعلاء كلمة الدين، ولكنه لم يكن صالحاً للحكم. لقد سلم زمام المسلمين إلى قومه الأمويين الذين حاربوا الإسلام بكل ما استطاعوا من حول وطول، واضطهدوا النبي وآذوه هو وأصحابه ولم يدخلوا في الإسلام إلا مرغمين. أجل! لقد أعطاهم عثمان[3] مقاليد الأمور وتركهم على هواهم فتصرفوا في أموال المسلمين كيف شاءوا دون رقيب أو حسيب، ونهبوا ما استطاعوا لا ضمير يؤنبهم ولا دين يردعهم ولا رئيس يؤاخذهم.

ثم إن عثمان عين على الأقاليم ولاة عرفوا بسوء السيرة واشتهروا بالفسق والفجو. ومن هؤلاء الحكام الوليد بن عقبة الذي بعثه عثمان حاكما على العراق. لقد شرب وأفرط في الشراب، ثم ذهب إلى المسجد لأداء صلاة الصبح

(١) الأغاني جزء ٧ ص ٢٤٤ طبع دار الكتب المصرية.

(٢) هو السيد الحميري.

(٣) الأمامة والسياسة لابن قتيبة ص ٥٤.

فصلى الناس أربع ركعات ثم التفت إليهم وقال: أزيدكم؟ وقياً في المحراب، وقرأ في الصلاة وهو رافع صوته:

علـــــق القلـــــب الـــــربابا بعـــــد مـــــا شـــــابت وشـــــابا

فقدم رجل المدينة وأخبر عثمان بما حصل من الوليد فما كان من عثمان إلا أن ضرب الرجل، فقال الناس: عطلت الحدود وضربت الشهود.

قال صاحب الأغاني (١) «خرج رهط من أهل الكوفة إلى عثمان في أمر الوليد فقال: أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل! لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم. فاستجاروا بعائشة، وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة، فقال: أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة؟ فسمعت فرفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت: تركت سنة صاحب هذه النعل فتسامع الناس فجاءوا حتى ملئوا المسجد، فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا، حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال، ودخل رهط من أصحاب رسول الله "ﷺ"فقالوا له: أتق الله وأعزل أخاك (٢) عنهم فعزله».

فيلاحظ القاريء مما تقدم أموراً منها أن عفان اعتبر وفد العراق فساقاً ومراقاً، ثم إنه جعل بيت رسول الله أو بيت عائشة أم المؤمنين ملجأ لهؤلاء الفساق والمراق. فهذا البيت في نظر عثمان مكان للمروق والخروج!! والأمر الثالث الذي يلاحظه القاريء أن عائشة صرحت بأن عثمان ترك سنة رسول الله فتكاثر الناس وتحاصبوا وتضاربوا بالنعال. فكان عثمان بتركه سنة رسول الله مستحقا للعزل. ولما طلب المسلمون منه ذلك وألحوا عليه مرارا رفض وأبى

(١) الأغني جزء ٥ ص ١٣٠ طبع دار الكتب.

(٢) كان الوليد بن عقبة أخا عثمان من الرضاع.

وأمعن في الرفض والإباء، فلم يجد القوم بدا من قتله. قتل عثمان لما قدمنا من أسباب، ولأسباب أخرى لا يتسع المجال لشرحها.

(٥) علي

بعد مقتل عثمان انقسم المسلمون إلى ثلاث أحزاب، وهي:

عثمانيون وهم الذين طالبوا بدم عثمان وكانوا فرقتين: الفرقة الأولى بزعامة معاوية، والثانية بزعامة طلحة والزبير.

أما الحزب الثاني فهم العلويون أنصار علي بن أبي طالب.

وبعد قليل زهر حزب ثالث وهو حزب الخوارج.

ثم أخذت هذه الأحزاب ينقسم بعضها على بعض حتى أربى عدد فرقها على السبعين، وإنك لتجد ذلك واضحاً جلياً في كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

(٦) خطر الموقف

اجتمع فريق من المسلمين وبايعوا عليا. وكان أول من بايعه الأشتر النخعي أحد قواد جيشه. ولكن عليا وجد أن عدداً كبيراً ممن يعتد برأيهم من الصحابة غير راضين عنه. فدعا طلحة والزبير لمبايعته فتلكأ طلحة فهدده الأشتر النخعي بالقتل فأذعن وبايع. وجيء بسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ليبايعا فامتنعا. وتخلف عن البيعة من الأنصار كثيرون منهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة ابن مخلد، وأبو سعيد الخدري، ومُحَمَّد بن مسلمة، والنعمان بن بشير، وزيد ابن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عمرة. وكان هؤلاء يميلون إلى عثمان لما كان يسبغه عليهم من أموال.

ثم إن عائشة زوج النبي انضمت إلى جانب أعداء علي، وأخذت تحرض الناس عليه، وتشجعهم على محاربته.

وجد علي نفسه أمام أعداء أقوياء من الشرق ومن الغرب، فقد خرج طلحة والزبير إلى العراق، وكان معهما جيش كبير وخرجت معهما عائشة أم المؤمنين. وهنا يلاحظ القاريء موقفين متناقضين لعائشة، الموقف الأول كان ضد عثمان الذي ترك سنة رسول الله كما تقدم آنفا.

والموقف الثاني خروجها مع طلحة والزبير إلى العراق، وانضمامها إلى صفوف الذين يطالبون بدم عثمان!!

لا شك في أن عائشة أصابت في موقفها الأول، ولكنها في رأيي أخطأت خطأً عظيماً في الثاني، فما كان لنساء النبي أن يخرجن من بيوتهن على هذه الصورة. ترى ما الذي دفعها إلى الذهاب إلى العراق مع طلحة والزبير؟ وما الذي حملها على تحريض الناس على محاربة علي ابن عم الرسول؟ أصحيح أنها كانت تريد الثأر لعثمان؟

استطاع علي أن يوقع بطلحة والزبير هزيمة شنيعة في وقعة الجمل التي قتل فيلها طلحة والزبير، وخسر فيها الفريقان خسارة كبيرة. ثم عامل على عائشة معاملة حسنة وردها إلى المدينة معززة مكرمة.

***

ثم فرغ بعد ذلك لمعاوية، وتقابلت جيوشهما في صِفِّين. وهناك دارت رحى الحرب بين الفريقين واستمرت أكثر من ثلاثة أشهر خسر فيها الفريقان خسارة فادحة. ولما رأى معاوية أن الهزيمة توشك أن تلحق به، استشار عمرو بن العاص في الموقف فأشار عليه برفع المصاحف على أسنة الحراب، وطلب تحكيم كتاب

الله. فحاول علي أن يحمل جنده على مواصلة القتال حتى النهاية، ولكنهم رفضوا فاضطر إلى قبول التحكيم. ولما انتهى أمر الحكمين بتثبيت معاوية وخلع علي، أراد علي معاودة القتال، ولكن فريقاً من أتباعه رأوا أنه كفر بقبول التحكيم وطلبوا منه أن يعترف بذلك ويتوب ولكنه رفض طلبهم، فخرجوا عليه وسموا بالخوارج. وقد قاتلهم وشتت شملهم في واقعة النهروان.

ثم رجع من حرب الخوارج وأخذ يحث أنصاره على النهوض معه لقتال معاوية، ولكنهم كانوا يعتذرون بمختلف المعاذير ليبرروا عدم قدرتهم على القيام معه. وبقي يخطب فيهم على غير جدوى حتى قتل.

***

لقد أخفق علي إخفاقاً مبيناً لأنه كان في العراق حيث القبائل البدوية التي لا تعرف الطاعة ولا النظام بخلاف معاوية الذي كان بالشام يسيطر على جنود يدينون به بالطاعة والولاء.

ثم إن عليا كانت تنقصه صفات لابد من توافرها في كل سياسي ناجح من مكر ودهاء وخداع وشراء للأنصار بالمنح والصلات إلى غير ذلك مما لم يتوافر فيه.

***

ولم يكن حظ ابنه الحسن بأفضل من حظ أبيه، فقد مات مسموماً، وحدث أن عهد معاوية بالخلافة من بعده لابنه يزيد، فغضب كثير من المسلمين وثاروا عليه. وخرج الحسين إلى العراق فقابلته جيوش يزيد عند كربلاء ولم يخفَّ أهل العراق لنجدته، فحوصر هو وأصحابه ثم هجم عليهم أعداؤهم فاستشهدوا جميعاً ولم ينج إلا طفل صغير هو علي بن الحسين الملقب زين

العابدين والنساء اللاتي كن مع الحسين.

(٧) خاتمة

هذا البحث الذي سقناه عن الخلافة لابد لنا منه. فالتشيع مذهب سياسي يقوم على أركان أهمها منصب الخلافة ولمن يكون.

ولقد رأينا أن القوم بشر مثلنا، لهم حسنات ولهم سيئات. وقد كان يخطيء بعضهم بعضا. وإذا كان التعرض لهؤلاء الناس بالنقد كفراً فما الحكم على عائشة وقد قالت: «اقتلوا نعثلا [١] لعن الله نعثلا» وخرجت إلى العراق وخطبت كثيراً وحرضت الناس على قتل علي وأبنائه، وساقت إليهم الشتائم والسباب؟ وما الحكم على علي وقد رأينا موقفه من أبي بكر وعمر؟

الظاهر أن النقد للصحابة كفر إذا كان ذلك منا، أما إذا تعرض بعض الصحابة لبعض كما مر بنا بالسب واللعن فهذا ليس بكفر. ذلك رأي كثيرين. أما أنا فلا أذهب إلى ما يذهبون ولا أرى ما يرون.

***

لقد تنازع القوم على منصب الخلافة تنازعاً قل أن تجد له مثيلاً في الأمم الأخرى، وارتكبوا في سبيل ذلك ما نتعفف نحن عن ارتكابه الآن. فترتب على ذلك أن أزهقت أرواح ودمرت مدن، وهدمت قرى وأحرقت دور، وترملت نساء، وتيتمت أطفال، وهلك من المسلمين خلق كثير. ومع ذلك نجد الكتاب والمؤرخين إذا تناولوا هذا العصر أسبغوا على هؤلاء القوم ثوباً من الإجلال والتقديس وجمعوا حول سيرهم الكثير من الأساطير والخرافات، ووضعوا لهم المناقب واختلقوا الأحاديث، حتى إن الناس لم يجرءوا على تناول الأحداث

---

(١) تريد عثمان بن عفان.

الجسام التي وقعت في هذا العصر بروح النقد النزيه والتحميص العلمي، وذلك لما أصابهم من الخوف والوجل إذا هم تعرضوا لأمثال هؤلاء الرجال. فقد رسخ في الأذهان أن التعرض لهم كفر صريح، وخروج على الدين الحنيف.

الفصل الثاني

فرق الشيعة

اختلف الشيعيون فيما بينهم بعد وفاة علي بن أبي طالب. كان أساس اختلافهم تعيين الأئمة. فمنهم من قال إن عليا نصر على إمامة ابنه مُحَمَّد بن الحنفة، وهؤلاء هم الكيسانية. ومؤسس هذه الفرقة هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي استطاع أن يثأر للحسين وينكل بمن حاربوه أو اشتركوا في قتله. ثم بسط سلطانه على بلاد العراق والجزيرة وفارس وأرمينية ودعا الناس إلى مبايعة مُحَمَّد بن علي الملقب ابن الحنيفة، وأمه تسمى خولة من بني حنيفة واستدل المختار على إمامة ابن الحنيفة بأن علياً جمع إليه اللواء يوم الجمل. ويقال إنه أخذ مذهبه هذا من كيسان مولى علي، وقيل إن كيسان هذا لقب المختار. وكان مُحَمَّد بن الحنيفة في ذلك الوقت مقيماً في مكة فقبض عليه ابن الزبير وحبسه مع نفر من شيعته في سجن عارم. ولما بلغه أن جيشاً من أنصار ابن الحنيفة يعد العدة للهجوم على السجن وتخليص من فيه، أمر بوضع الخشب وإشعال النيران في السجن. وفي تلك اللحظة التي اشتعلت فيها النيران وصل نفر من أنصار ابن الحنيفة واستطاعوا أن ينفذوه. وقد مات مُحَمَّد بن الحنيفة سنة ٨١هـ وصلى عليه أبان بن عثمان بن عفان وكان والي المدينة ودفن بالبقيع. وبموته انقسم الكيسانية إلى فرقتين: الفرقة الأولى أصحاب أبي كرب الضرير وقد عرفت بالكَرَبية. وهذه الفرقة تزعم أن مُحَمَّد بن الحنيفة حي لم يمت وأنه مقيم بجبل رضوى وعن يمينه أسد وعن يساره نمر وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل يأخذ منهما رزقه. وأنه سيخرج من هذا الجبل ويعود إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وأنه هو المهدي المنتظر. وفكرة الرجعة هذه ظهرت بين المسلمين لأول

مرة بعد وفاة الرسول، وكان أول من تكلم بها عمر بن الخطاب إذ قال إن الرسول لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران وإنه سيرجع كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات. وكان ينتمي إلى هذه الفرقة من الشيعة الشاعران الكبيران كثير والسيد الحميري؛ فقد كان كل منهما يدين بإمامَة مُحَمَّد بن الحنيفة ويؤمن بالرجعة؛ وقد قالا في ذلك شعراً كثيراً تراه في موضعه من هذا الكتاب.

أما الفرقة الثانية فقالت بوفاة ابن الحنيفة ونقلت الإمامة بعده إلى ابنه أبي هاشم. وقد انشعبت هذه الفرقة بسبب الاختلاف في اختيار الإمام إلى شعب كثيرة.

***

وأما من لم يقل بالنص على مُحَمَّد بن الحنيفة فقد جعل الإمامة في الحسن والحسين, واختلفوا فيما بينهم اختلافاً كبيراً. فمنهم من أجراها في أولاد الحسن فقال بعده بإمامة ابنه الحسن ثم ابنه عبد الله ثم ابنه مُحَمَّد ثم أخيه إبراهيم. ومُحَمَّد وإبراهيم خرجا على المنصور، ودارت بين مُحَمَّد والمنصور مكاتبات بشأن أحقية كل منهما في الخلافة، فكتب المنصور إلى مُحَمَّد بن عبد الله بعد خروجه يعرض عليه الأمان فرد عليه مُحَمَّد بخطاب طويل أتينا به في غير هذا الموضع من الكتاب فلما قرأه المنصور، استدعى الكُتاب ليردوا على مُحَمَّد بن عبد الله ثم بدا له أن يرد بنفسه فأملى رسالة طويلة أثبتناها عند الكلام على أثر التشيع في النثر. وقد انهزم مُحَمَّد وأخوه إبراهيم وقتلا شر قتلة.

ومن الشيعة من أجرى الوصية في أولاد الحسين وقال بعده بإمامة ابنه علي وزين العابدين نصا عليه، ثم اختلفوا بعده فمنهم من قال بإمامة ابنه زيد وهؤلاء الزيدية وهم موجودون حتى أيامنا هذه في بلاد اليمن. ومنهم من قال بإمامة مُحَمَّد بن علي الباقر نصا عليه، ثم بإمامة جعفر بن مُحَمَّد وصية إليه وهؤلاء

هم الإمامية. ثم اختلفوا بعده في أولاده من المنصوص عليه، وهكذا ظل الشيعة ينقسمون إلى فرق كثيرة. ومن أشهر الفرق الباقية إلى اليوم الإمامية الاثنا عشرية. وإليها كان ينتمي الشاعران الكبيران الشريف الرضى وتلميذه مهيار الديلمي. ومن الفرق العظيمة فرقة الإسماعيلية وهي ما زالت إلى عصرنا هذا منتشرة في بلاد الهند وزعيم هذه الفرقة أغاخان الذي يقضي معظم وقته في أوربا.

***

وللشيعة معتقدات غريبة في الأئمة فهم يضعونهم في منزلة الآلهة، ويسندون إليهم العصمة، ويغلون في ذلك غلوا كبيرا. أُنظر إلى ابن هانيء الأندلسي حيث يقول في مدح المعز لدين الله الفاطمي.

أتبعته فكرتي حتى إذا بلغت	غاياتها بين تصويب وتصعيد
رأيت موضع برهان يلوح وما	رأيت موضع تكييف وتحديد

قال ابن أبي الحديد[1] «وهذا مدح يليق بالخالق تعالى ولا يليق بالمخلوقين» وهم يرون أن طاعة الإمام من طاعة الله فهي ركن من أركان الدين وأساس من أسس الأيمان، لا فرق بينها وبين أية فريضة من الفرائض. كما يرون أن الإمام هو الذي يشفع لأمته فحبه نجاة، وليس للإنسانملجأ سواه هو الذي يحط عنهم ذنوبهم وخطاياهم، ويخلصهم كم الإصر والأوزار. قال ابن هانيء:

فَرْضَان من صَوْمٍ وشُكْرِ خِلافةٍ	هذا بهذا عندنا مَقْرُونُ
فارْزُقْ عبادَك مِنك فضْلَ شفاعةٍ	مَا قَدْرُكَ المنثورُ والموزُونُ
قد قالَ فِيك اللهُ ما أَنا قَائِلٌ	فكأنَّ كلَّ قصيدةٍ تَضْمِينُ

وقال من قصيدة أخرى:

هَذا الذي تُرجَى النَّجَاةُ بِحُبِّهِ	وبه يُحط الإصْرُ والأوزَارُ

(١) شرح ابن أبي الحديد جزء ١ ص ٢٠ طبعة الحلبي.

هـذا الـذي تُجْـدِى شَـفَاعَتُه غَـدا　　　حقًّـا وَ تَحْمُـد أَنُ تَـرَاهُ النـارُ
مِـنْ آلِ أحمـدَ كـلُّ فَخْـرٍ لم يكُـنْ　　　يُنْمَـى إليهِمْ لـيس فيـه فَخـارُ

ومنها

أبنـاءَ فـاطِمَ هـل لنـا في حَشـرنا　　　لجـأٌ سـواكم عاصِـمٌ وبُحَـار
أَنْـتُمْ أحبـاءُ الإلـهِ وآلـه　　　خُلفـاؤه في أرضـه الأبـرارُ
أَهـلُ النُّبـوَّةِ والرسـالةِ والهُـدىَ　　　في البَيِّنَـاتِ وَسَـادَةٌ أطهـارُ
والـوحي والتأويـل والتحـريم والتحليـل لاخُلـفٌ ولا إنكـارُ

إن قِيـلَ مـن خـيرُ البريـةَ لم يكـن　　　إلا كُـمُ خلـقٌ ولا إنكـارُ
لـو تَلْمَسُون الصخْرَ لا نْبَجستْ بهِ　　　وتَفَجَّـرتْ وَتَـدَفَّقَتْ أنهـارُ
أَو كـان منكم للرُّفَـاتِ مُخَاطِـبٌ　　　لَبَـوا وَظَنُّـوا أَنَّـهُ إِنْشَـارُ

ويرى الشيعة أن الإمام من نور الله.

قال ابن هانِيء:

وما سارَ في الأَرضِ العريضة ذِكرُه　　　ولكنـه في مسلك الشـمس سـالك
ومـا كنـه هـذا النـورِ نـورُ جبينـه　　　ولكـنّ نـورَ اللهِ فيـه مُشَـارِكُ

ويعتقدون أن حب علي وآله كافٍ لمحو أكبر الذنوب: فكان منهم من يشرب الخمر فإذا لامه أحد على ذلك أجاب بأن حب عليّ كفيل بأن يضع أعظم وزر عن عاتق مرتكبه؛ وفي ذلك يقول أحد شعرائهم.

حـبُّ علـي في الـورى جُنَـةٌ　　　فـامح بهـا يارَبِّ أوزاري
لـو أن ذِمِيـا نـوى حبـه　　　حُصِّـن في النَّـار مـن النَّـار

وهم يقلون إن لكل نبي وصيًّا وإن مُحَّداً خاتم الأنبياء وعليا خاتم الأوصياء.

وقد سرى كثير من عقائد الشيعة إلى سائر الفرق الإسلامية، فأصبح المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يؤمنون بالمهدي المنتظر. وأّخذ الصوفيون هذه الخرافة ووضعوها في قالب جديد، فسموا المهدي قطبا وقالوا عنه «إنه[١] يدبر الأمر في كل عصر، وهو عماد السماء ولولاه لوقعت على الأرض».ولهذا القطب مساعدون يسمون بالنقباء لهم في زعم المتصوفة قدرة فائقة على استخراج ما تكنه النفوس وما تخفيه الأرحام. قد كشف عنهم الحجاب، فأصبحوا يعرفون من إبليس ما لا يعرفه عن نفسه، ويقول رجال الطرق[٢] الصوفية أن الأشياخ سلم الطريق، لأن الطريق سماء لا يتوصل إليها إلا بالسلم، والأشياخ واسطة بين المرء وربه.

وفي مصر نرى كثيرين يعتقدون بوجود شخص يسمى الخضر، ويسندون إلييه من الخوارق والمعجزات ما لم يسند للأنبياء من قبل، ويقولون إنه لن يموت إلا عند قيام الساعة. والعامة معذورون عندنا لأن رجال الدين لا يكافحون مثل هذه الخرافات.

ولما كانت الإمامة ركناً من أركان الإيمان عند الشيعة، وكانوا يعتقدون بإمامة عليَ بالنص، ترتب على هذا أن يكون حب عليّ أساساً من أسس الإيمان. وقد ساقهم هذا إلى تكفير كل من ناوأ عليا أو نازعه في هذا الحق. قال بذلك معظم فرق الشيعة عدا قليل منهم، فإنهم لم يحكموا على من خالف عليا بالكفر والخروج عن الدين. فأما الأولون وهم الغلاة فقد كفروا أبا بكر وعمر وعائشة وغيرهم، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا لعنهم قربة إلى الله. ومن هنا نستطيع أن نفهم المطاعن الكثيرة التي زخر بها الأدب الشيعي في حق الخلفاء

(١) الفتوحات المكية لابن العربي.

(٢) كتاب المنهج الحنيف لأحد الصوفيين_ مخطوط.

الأولين، فقد كان السيد الحميري وابن الحجاج ومهيار الديلمي يكثرون من سب هؤلاء القادة وهم يرون في ذلك ما يقربهم من الله وما يضمن لهم الجنة التي أعدت للمتقين.

وقد اعتاد أعداء الشيعة أن يطلقوا على كل من عرف بتشيعه كلمة «رافضي» والحق أن الرافضة فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي بن الحسين، ثم قالوا له: تبرأ من الشيخين (أبي بكر وعمر) نقاتل معك: فأبى وقال: كانا وزيري جدي، فلا أبرأ مهما؛ فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه فسموا الرافضة[1] لذلك.

ومن هذا يتضح أن الرافضي هو الذي يرفض أبا بكر وعمر، ولا يرى لأحد حقا في الخلافة سوى عليّ. إلا أن كلمة رافضيي كانت تطلق تشياً وانتقاماً من كل من أبدي حباً لآل علي. قال الإمام الشافعي:

إن كانَ رفضا حبُّ آلِ محمدٍ ... فليّشْهدِ الثَّقلانِ أَنّيَ رافضِي

وقال:

برئْتُ إلى المهيمن من أناسٍ ... يرّوْنَ الرفضَ حبّ الفاطميَّهْ
على آلِ صلاةُ ربِّي ... ولعْنَتُه لتلكَ الجاهِليَّهْ

(1) انظر القاموس وشرحه في مادة (رفض).

الباب الثاني

مقدمة

التشيع والأدب

جاء الأدب الشيعي صورة صادقة لما وقع على العلويين من اضطهاد. فقد قتل عليّ، وأصبح آله يُستذلون ويُضامون، ويُقصون ويمتهنون، ويحرمون ويقتلون، ويخافون ولا يأمنون على دمائهم ودماء أَوليائهم. فقتل أنصار علي في كل قطر وكل مصر في عهد معاوية، وعذبوا تعذيباً مرا، قطعت منهم الأيدي والأرجل على الظنة. من ذكر بحب آل عليّ سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. وكان البلاء يشتد على العلويين يوماً بعد يوم. فقتل الحسين على صورة مؤلمة في كربلاء، ثم جاء الحجاج فبطش بهم بطش عزيز مقتدر حتى أصبح اتهام الرجل بالزندقة والكفر أهون عليه بكثير من اتهامه بحب آل عليّ. فقد أفتن الأمويون في طرق الإعدام، فمن دفْن للناس وهم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق، إلى حبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس حتى يقضي نحبه جوعاً وعطشاً. كانوا يرتكبون هذه الآثام في وحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا فيقطعون رأس الأب أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأم أو الزوجة ويلقونه في حجرها. وكانوا يصلبون الناس ويتركونهم حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء. وسب الأمويون عليا على المنابر واخترعوا له المثالب والنقائص. وحرموا على الناس ذكر اسمه واسم أحد من أبنائه كما حرموا على الناس أن يسموا أبناءهم عليا أو حسنا أو حسينا.

ثم جاء دور بني العباس، وكانوا للعلويين أشد كرهاً، وأعظم بغضا، فأمعنوا فيهم قتلا وحرقا، واضطهادا وتعذيباً. فأمر المنصور فحمل إليه من المدينة كل من كان فيها من العلويين مقيدين بالسلاسل والأغلال، ولما وصلوا إليه وكان بالهاشمية، حبسهم في سجن مظلم لا يعرف فيه ليل من نهار. وكان إذا مات الواحد منهم ترك معهم. وأخيراً أمر بهدم السجن عليهم. وفي ذلك يقول أحد شعراء الشيعة:

واللهِ ما فعلَتْ أميةُ فيهمُ   مِعْشَارَ ما فَعَلَتْ بنو العباسِ

وقال أبو فراس:

ما نال منهمْ بَنو حرب وإن عَظُمَتْ   تلكَ الجرائمُ إلا دون نَيْلِكُمُ

وقال الشريف الرضى:

أَلا لَيْس فعلُ الأَولينَ وإن علاَ   علَى قُبحِ فِعلِ الآخرينَ بِزَائِد

وقد بالغ الرشيد في التنكيل بالعلويين. ولم يخف الضغط عليهم إلا حين ضعفت الخلافة العباسية وأصبح السلطان الفعلي في الممالك الإسلامية للترك والديلم وبني حمدان.

كل هذه النكبات قد أثرت تأثيراً كبيراً في الأدب الشيعي نثره وشعره. وإنا مبينون ما تركته من أثر في دولة النثر أولا ثم في دولة الشعر ثانياً.

الفصل الأول

في النثر

(١) الخطابة

لما قام الخلاف بين علي ومعاية شرع كل منهما يخطب في جنوده وأنصاره محرضاً إياهم على القتال والكفاح، فراجت سوق الخطابة رواجاً عظيماً، وارتفع شأنها إلى درجة لم يسبق لها مثيل، وكثر الخطباء في كل قطر من علويين وأمويين وخوارج، كل يؤيد وجهة نظر الحزب الذي ينتمي إليه، وكل يحرض على أعدائه ويطعن فيهم ويرميهم بكل نقيصة. نهضت الخطابة في كل صقع: في الشام وفي العراق وفي مصر وفي الحجاز وفي اليمن. وامتاز أسلوبها بالقوة والمتانة وكثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والاقتباس من الشعر والأمثال فضلا عن البراهين والأدلة التي يسوقها كل خطيب ليدعم بها رأيه ويؤيد مذهبه. وكانت الخطب، ولا سيما خطب العلويين تفيض بالعواطف وتزخر بالحماسة وتطفح بالتحريض على القتال والنزال. وفيها تهديد بغضب الله على كل من يتخلف عن الجهاد وفيها ترغيب بدخول الجنة لمن يجاهدون ويكافحون. وقد بلغت في الطول درجة لم تصل إليها من قبل.

ومن أشهر خطباء ذلك العصر الإمام علي الذي امتاز بمضاء لسانه، وعلو بيبانه، وقوة منطقه، وسطوح حجته، ومواتاه البلاغة له في خطبه وكتبه ورسائله وسوابغ حكمه وجوامه كلمه. قال الشريف الرضي في مقدمة نهج البلاغة يصف عليا: «كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها،

ومنْشَأ البلاغة ومَوْلِدَها، ومنه عليه السلام ظهر مَكنونُها وعنه أُخذتْ فوانينها، وعلى أَمثلته حذا كلُّ قائلٍ وخَطيب، وبكلامهِ استعان كلُّ واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبقَ وقصروا، وقد تقدَّم وتأخروا، لأن كلامَه عليه السلامُ الكلامُ الذي عليه مَسحةُ من العلم الإلهي، وفيه عَبْقةٌ من الكلام النبوي». ومن بليغ خطبه قوله.

«أما بَعْد، فإن الجهادَ بابٌ من أَبوابِ الجنةِ، فتحه اللهُ لخاصةِ أَولياَتِه، وهو لباسُ التقوى، ودرعُ اللهِ الحصينةُ، وجُنَّتُه الوثيقة. فمن تركه رغبةٌ عنه، ألبسه الله ثوبَ الذُّل، وشَمَله البلاءْ، ودُيِّت بالصَّغار والقَماءَةِ، وضُرب على قلْبِهبالإسْهابِ، وأديلَ الحمقُ منه بتضييعِ الجهادِ، وسيمَ الخسفَ ومُنِعَ النَّصْفَ. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتالِ هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا، وقلتُ لكم اغزوهم قبلَ أن يغزوكم، فو الله ما غُزى قوم عقر دارهم إلا ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنُت عليكم الغارات، ومُلِكت عليكم الأوطان. وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبارَ، وقد قتل حسانَ البكريَّ وأزالَ خيلَكم عن مَسالحها. ولقد بَلغني أن الرجلَ منهم كان يدخل على المرأةِ المسلمةِ، والأخرى المعاهدِة فينتزعَ حُجُلَها[1] وقُلُبها [2]، وقلائدَها ورُعُثَها [3]، ما تمتَنع منه بالإسترجاعِ [4] والاسترحامِ، ثم انصرفوا وافرين، ما نالَ رجلا منهك كلمٌ، ولا أريق لهم دم». وهي طويلة يراها القارئ في كثير من كتب الأدب لا سيما البيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد. وأنت ترى أن عليا بدأ خطبته بالترغيب في الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة وطريق يؤدي إلى النعيم المقيم، وترك هذا الجهاد

---

(١) الجحل بالكسر الخلخال.

(٢) السوار.

(٣) واحده رعثة بالفتح وهو القرط.

(٤) ترديد الصوت بالبكاء.

يسوق الناس إلى الذل والعبودية. ثم أخذ يستنفر قومه إلى الحرب فذكر أن عسكر أخي غامد قد دخلت الأنبار وارتكبت فيها من الجرائم شيئاً كثيراً. قتلت الرجال وحرقت الدور ودمرت الأحياء. ثم وضع عليَ يده على أهم ما يثير العربي وهو العرض فأخبرهم أن الرجل من هؤلاء الغزاة كان يدخل على المرأة فيسلبها خيلها وينصرف آمنا مطمئنا.

***

أما الأمويين فكانوا يملئون خطبهم بالشتائم والسباب والمطاعن والمثالب في علي وآل بيته. وكان الخطباء في المساجد يختمون خطبة الجمع بلعن عليّ والترحم على عثمان والاستغفار له، وإطراء شيعته. روى الطبري أن معاوية بن أبي سفيان لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادي سنة ٤١هـ، دعاه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال... «أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتمادا على بصرك إيصاءك بخَصلة، لا تَتَحَّمَ[١] على شتم عليّ وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم وعدم الاستماع منهم.... [٢]» قال الطبري: «إن المغيرة أقام عاملا على الكوفة لمعاوية سبع سنين وأشهرا وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حباً للعافية، غير أنه لا يدع ذم عليّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه».

(٢) الرسائل

ظهر أثر التشيع واضحاً جلياً في الرسائل التي تبودلت بين عليّ ومعاوية وبين الحسن ومعاوية وبين زينب بنت علي وبين يزيد، وبين مُحَّد بن عبدالله وبين

---

(١) لا تتجنب.

(٢) تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١٤١ طبع أوربا.

المنصور، وبين غير هؤلاء من علويين وأمويين أو علويين وعباسيين. وقد امتازت هذه الرسائل بطولها، وبقوة أسلوبها ومتانة ترطيبها. ترى فيها الحجج القوية، والبراهين الساطعة، والأدلة الواضحة التي يأتي بها كاتبها تأييدا لما يقول، وطعنا على صاحبه واسقاطا لما يدعي في الخلافة، وإظهارا لنقائص الخصم ومثالبه. فيها ترغيب وتهديد، ووعد ووعيد.

وامتازت هذه الرسائل كذلك بكثرة الاقتباس من القرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر. ومن أمثلة ذلك أن المنصور بعث رسالة إلى مُحَمَّد بن عبدالله بالمدينة، وكان قد خرج عليه، وأعلن الحرب ضده، يرغبه ويرهبه، وينذره عاقبة الخروج والعصيان، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى الجماعة. فكتب إليه مُحَمَّد بن عبد الله هذا الكتاب.

«بسم(١) الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المهدي مُحَمَّد بن عبد الله إلى عبدالله بن مُحَمَّد. طسم، تلك آيات الكتاب المبين، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا، يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم، ويستحْي نساءهم، إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي، فإن الحق حقنا، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا عليا كان الوصي، وكان الإمام. فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا، وشرف آبائنا؛ لسنا من أولاد اللُّعَناء ولا الطُّرَدَاء، ولا الطُّلَقاء. وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٩ ص ٢٠٨.

الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين مُحَمَّد ﷺ، ومن السلف أولهم إسلاما عليّ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة، وأول من صَلّى القبلة، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة؛ وإن هاشما ولد عليا مرتين وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين. وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم أما وأبا، لم تعرق في العجم، ولم تتنازع في أمهات الأولاد. فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة وأهونهم عذابا في النار، وأنا ابن خير الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة، وابن خير أهل النار. ولك الله عليَّ إن دخلت في طاعتي، وأجبت دعوتي. أن أؤمنك على نفسك ومالك، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلي؛ فأي الأمانات تعطيني؟ أأمان ابن هُبيرةَ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟؟ ».

فأنت ترى في هذه الرسالة أن كاتبها مُحَمَّد بن عبدالله عرض فيها نظرية العلويين السياسية والدينية، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي لأن أباهم كان وصيّ النبي، ولأن أمهم بنت النبي، وما كان لغيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء. ثم أخذ بعد ذلك يفتخر بقرابته من النبي ومكانته منه في الإسلام وفي الجاهلية؛ وبهذه الكرامة التي خص الله بها أهل البيت. ثم ذكر أنه ابن خير الأخيار وخير الأشرار، وخير أهل الجنة وخير أهل النار. أراد أبا طالب الذي مات ولم يسلم،

فيروي أنه أقل أهل الناس عذابا لما قام به نحو النبي من واجب العطف والرعاية. ثم ختم رسالته بفقرة بلغت من القوة مبلغا عظيما، حتى إن المنصور لم يستطع لها دفعا، لأنها كانت من الحق بحيث لا يمكن دفعها. هذه الفقرة التي يذكر فيها خيانة المنصور لقوم استأمنوه فآمنهم، ثم غدر بهم، ونقض عهده، وأخذهم على غرة وهم عزل من كل سلاح. وقد وقع هذا الخطاب وقوع الصاعقة في قصر المنصور، فاهتم به اهتماماً كبيراً، وانتدب الكتاب والأمراء للرد عليه، ولكنهم لم يوفقوا إلى إرضائه فيما كتبوا، فتولى الرد بنفسه، وأملى هذه الرسالة.

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله عبدالله أمير المؤمنين، إلى مُحَمَّد بن عبد الله؛ أما بعد، فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء، لتضل به الجفاة والغوغاء؛ ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعَصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أبا وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن كانت آمنة أقربهن رحما، وأعظمهن حقا، وأول من يدخل الجنة غدا، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم واصطفائه لهم.

وأما ما ذكرت من فاطمة أن أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحدا رزق الإسلام، لا بنتا ولا ابنا. ولو أن أحدا رزق الإسلام بالقرابة، رزقه عبدالله أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء؛ قال الله عز وجل: إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين. ولقد بعث الله مُحَمَّدا عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عز وجل"وأنذر عشيرتك الأقربين" فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان: أحدهما أبي، وأبى أثنان: أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا

ذمة ولا ميراثا.

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا، وابن خير الأشرار وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير. وليس في الشر خيار؛ ولا ينبغي لمؤمن بالله أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم. «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

أما ما فخرت به من فاطمة أم علي، وأن هاشما ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة؛ وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسبا، وأصرحهم أما وأبا، وأنه لم تلدك العجم، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طرا. وانظر ويحك أين أنت من الله غدا، فإنك قد تعديت طورك، وفخرت على من هو خير منك نفسا وأبا، وأولا وآخرا، إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى ولد ولده. وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين، وهو لأم ولد، ولهو خير من جدك حسين بن حسن؛ وما كان فيك بعده مثل ابنه مُحَمَّد بن علي وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك. ولا مثل ابنه جعفر، وجدته أو ولد، ولهو خير منك.

أما قولك إنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول في كتابه: «ما كان مُحَمَّدا أبا أحد من رجالكم». ولكنكم بنوا ابنته. وإنها لقرابة قريبة، ولكنها لا تجوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة، فكيف ورث بها؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه، فأخرجها نهارا، ومرضها سرا، ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما. ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين، أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يرثون. وأما ما فخرت به من علي

وسابقته، فقد حضرتْ رسول الله ﷺ الوفاة، فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه. وكان في الستة فتركوه كلهم، دفعا له عنها، ولم يروا له حقا فيها. أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له مُتهم. وقاتلهُ طلحة والزبير. وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده. ثم طلبها لكل وجه، وقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه، وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حَكَّم حكَمين رضي بهما، وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعا على خلعه، ثم كان حَسَن، فباعها من معاوية بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حِلَه، فإن كان لكن فيها شيء فقد بعتموه، وأخذتم ثمنه. ثم خرج عمك حسين بن عليّ ابن مرجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه، وأتوا برأسه إليه. ثم خرجتم على بني أمية، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم، وأسروا الصبية والنساء، وحملوهم بلا وطاء من المحامل، كالصبيّ المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأرثناكم أرضهم وديارهم، وسنَّيْنا سلفكم وفضلناه، فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا ذكرنا أباك وفضلناه، للتقدمة مناله على حمزة والعباس وجعفر، وليس ذلك كما ظننت. ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلما منهم، مجتمعا عليهم بالفضل، وابتلى أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة، فاحتججنا له، وذكرناهم فضله، وعنفناهم وظلمناهم بما نالوا منه. ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظيم، وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فما نزل عنها في الجاهلية والإسلام. ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل غمر إلى ربه، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به. ولقد علمت

أنه لم يبق أحد من بني المطلب بعد النبي ﷺ غيره. فكان وراثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده. فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده. فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام، في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه. وأما ما ذكرت من بدر، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله، وينفق عيلهم، للأزمة التي أصابته، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها، لمات طالب وعقيل جوعا، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطعمين، فأذهب عنكم العار والسُّبة، وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدى عقيلا يوم بدر؛ فكيف تفخر علينا وقد لعلناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه، ولم تدركوا إلا نفسكم. والسلام عليك ورحمة الله».

***

وقد أتيت بهاتين الرسالتين، لأضع أمام القاريء صورة من حرب الأقلام، وهي لم تكن أقل عنفا وشدة من حرب السهام. وكما كانت رسالة مُحَمَّد بن عبد الله قوية جدا، كذلك كانت رسالة المنصور في غاية القوة، ومنتهى الشدة، فاستطاع أن يرد على خصمه ردا مفحما، وأن يهدم مفاخر العلويين هدما تاما، ويقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين، وأن يقضي على نظرية العلويين في الحكم قضاء مبينا، مدللا على قوله بالقرآن والسنة والإجماع؛ فبين أن العم أحق بالوراثة من البنت، وأن العباس قد ورث النبي، فطبيعي أن يرثه أبناؤه من بعده. وذكر المنصور أن العلويين إن كان لهم حق فيها، فقد باعه حسن لمعاوية بخرق ودراهم، وعبر العلويين بنكرانهم الجميل، وكفرهم النعمة. فقد نهض العباسيون وجاهدوا في سبيل الثأر لهم، حتى نصرهم الله ووفقهم، وادركوا الثأر، وأذلوا

الأمويين، وأذهبوهم من الوجود، ومع كل هذا لم يجدوا من أبناء عمهم إلا عقوقا وجحوداً.

(٣) الحديث

والحديث كما تعلم جزء من الأدب. وقد اجتهد العلويون في وضع الأحاديث الكثيرة التي تثبت حق عليَ في الخلافة، والتي ترفع من شأنه وتعلي من مقامه. وقد بلغت الأحاديث التي وضعها الشيعة آلافا. ويتضمن كتاب الكافي، وهو عندهم بمنزلة صحيح البخاري عند السنيين، وطرفا منها. قال ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة [١] «واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم حملهم، على وضعها عداوة خصومهم».

ثم قال: «فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث» وقال في موضع آخر: «فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث».

وهكذا ظل القوم يتنافسون في الوضع، ويتسابقون في ميدان الكذب. وكان المراءون والمستضعفون من الرجال يضعون الأحاديث في فضائل عثمان وغيره من الصحابة، ويتقربون بها إلى بني أمية، الذين كانوا يجزلون لهم العطاء، ويمنحونهم الجوائز والهبات. ثم أخذ الشيعة في وضع أحاديث تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم وفسقهم، فقابلهم خصومهم بمطاعن كثير في علي وفي ولديه، ونسبوه تارة إلى ضعف العقل، وتارة إلى ضعف السياسة، وتارة إلى حب الدنيا والحرص عليها. ولم يسكت المحدثون الراسخون

---

(١) المجلد الثالث طبع مطبعة الحلبي ص١٧.

في علم الحديث عن هذا، بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعة، وبينوا وضعها، وأن رواتها غير موثوق بهم. ومثال ذلك ما روى عن علي بن أبي طالب أنه قال:

«خرجت مع رسول الله ﷺ ذات يوم إذ مررنا بنخل، فصاحت نخلة بأخرى هذا النبي المصطفى وعلي المرتضى، ثم جزناها فصاحت ثانية بثالثة موسى وأخوه هارون، ثم جزناها فصاحت رابعة بخامسة هذا نوح وإبراهيم، ثم جزناها فصاحت سادسة بسابعة هذا مُحَمَّد سيد المرسلين، وهذا على سيد الوصيين فتبسم ثم قال يا علي: إنما سمى نخل المدينة صيحانا لأنه صاح بفضلي وفضلك». وهذا الحديث أورده الإمام السيوطي في كتاب اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة مرويا عن ابن الندي ثم ذكر أن ابن الجندي هذا كان شيعيا ضعيفا في الرواية. ثم أورد السيوطي آراء علماء الحديث فيه وقد أجمعوا على أنه موضوع.

ومثال آخر وهو ماروي عن مُحَمَّد بن أيوب ومُحَمَّد الأسدي ومُحَمَّد ابن يونس الكديمي «النظر إلى علي عبادة» ذكر السيوطي أن مُحَمَّد بن أيوب مشهور بروايةة الموضوعات، ومُحَمَّد بن يونس الكديمي مشهوران بالكذب. وما رواه حفص بن عمر الإيلي من أن النبي قال لعلي حين خرج لغزوة تبوك:

«المدينة[1] لا تصلح إلا بي أو بك وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي». قال ابن حبان: حفص كذاب يحدث عن الأئمة بالبواطيل.

ولم يكتف العلويون بوضع الأحاديث التي تؤيد وجهة نظرهم السياسية، بل وضعوا أحاديث تثبت أن عليا اختصه الله بما لم يختص به أحد من البشر،

---

(1) اللآليء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي طبع مصر ص ١٧٧.

ومنحه من العلم والذكاء والشجاعة والحلم وسائر الفضائل ما لم يمنح غيره من الناس. ومثال ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: أنا مدينة العلم وعلى بابها» أنكره ابن الجوزي وقال إنه موضوع.

وقد كان للفرس نصيب وافر في وضع الأحاديث التي ترفع من شأن علي وآله، وقد أقر بعضهم بذلك ومنهم ميسرة(١) بن عبد ربه الذي اعترف بأنه وضع سبعين حديثا في فضل علي.

ومن أمثلة ما وضعه خصوم الشيعة ما روي من أن يهوديا أتى أبا بكر فقال: والذي بعث موسى وكلمه وتكليما إني لأحبك، فلم يرفع أبو بكر رأه تهاونا باليهودي، فهبط جبريل، وقال: يا مُحَمَّد: إن العلي الأعلى يقرأ عليك السلاك ويقول لك قل لليهودي الذي قال لأبي بكر إني أحبك، إن الله قد حاد عنه في النار خلتين، لا توضع الأنكال في عنقه ولا الأغلال في عنقه لحبه أبا بكر» فأخبره، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وما ازددت لأبي بكر إلا حبا، فقال: «هنيئاً لك، أحاد الله عنك النار بحذافيرها، وأدخلك الجنة لحبك أبا بكر» أتى به السيوطي في كتابه الآنف الذكر، وقد أنكره أئمة الحديث. وحديث آخر روى عن النبي أنه قال «يبعث معاوية يوم القيامة وعليه رداء من نور»، جزم ابن الجوزي وابن حبان بأنه موضوع.

***

كثرة وضع الأحاديث كثرة هائلة. وقد روي عن الإمام أبي حنيفة أنه لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا، ولم يصح عند الإمام مالك إلا ثلثمائة حديث. ولم يصح عند البخاري إلا ٢٦٠٠ من أكثر من ٦٠٠.٠٠٠ حديث سمعها الناس.

---

(١) مختصر علم الحديث لابن كثير هامش ص٨٣.

وقد تجاوزوا في الوضع والكذب دائرة الأشخاص إلى القرآن، فهذه الآية تشفي من مرض كذا وتلك تذهب الفقر وتجلب الغني وهكذا. ومثال ذلك كا روى عن أبي هريرة أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء» ورووا أن النبي قال: «من كانت له حاجة فليتوضأ وضوءا جيدا، ثم يلزم موضعا لا يراه أحد فيصلي أربع ركعات، يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشر مرات، وفي الثانية فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد عشرين مرة، وفي الثالثة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثين مرة، وفي الرابعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد أربعين مرة. فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد خسمين مرة، ثم يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم خمسين مرة ثم يستغفر الله سبعين مرة، فإن كان عليه دين قضى الله دينه، وإن كان فقيرا أغناه الله، وإن كان غريبا رده الله إلى أهله، وإن كان عليه من الذنوب حشو الدنيا يغفر الله له، وإن لم يكن له ولد فيسأله الله يرزقه ولدا».

***

وقد انغمس في الكذب والافتراء فريق ممن عرفوا بالتقوى والورع والنسك والزهد. فترتب على هذا أن الشعوب الإسلامية أصبحت ألعوبة في يد فريق من الناس يسيرونها وفق أهوائهم، ويستغلونها لمنفعتهم الخاصة باسم الدين وهم من أبعد الناس عن الدين. وقد أثر هذا في حياة المسلمين وأدى بهم إلى نوع من الذل والعبودية وضرب من التأخر والانحطاط.

(٤) القصص

قيل أن معاوية كتب إلى عماله «أن[١] انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم

---

(١) شرح ابن أبي الحديد المجلد الثالث ص ١٥ وما بعدها.

وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حينا» ولما كثرت الروايات في مناقب عثمان كتب معاوبة إلى عماله ليحملوا الناس على الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا يتركوا منقبة يرويها أحد من المسلمين في أبي تراب إلا ويأتوا بمناقض لها في الصحابة مفتعلة، فقرأت كتب معاوية على الناس في مختلف الأمصار فتسابق القوم في اختلاق المناقب وإلصاقها بكثير من الصحابة وجدوا في ذلك إلى أبعد حد، وأشادوا بتلك المناقب على المنابر ودفعوا بما اختلقوا إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير حتى حفظوه كما يحفظون القرآن، وعلموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم.

ولما تولى الحجاج العراق، واشتدت وطأته على العلويين، تقرب إليه أهل النسك والصلاح ببغض عليّ وعيبه والطعن فيه، كما أنهم أثبتوا قدرة فائقة على الكذب والافتراء فأضافوا قسطا وافرا إلى ما وضعه أسلافهم من الفضائل والمناقب وألصقوها بكثير من زعماء المسلمين الأولين.

فلما رأى العلويون ذلك عمدوا إلى مقابلة هذه الحركة بضدها وبرهنوا على أنهم لا يقلون عن خصومهم في القدرة على الوضع والاختلاق. فصنعوا المناقب الكثيرة لصاحبهم، ونسبوا إليه من الفضيلة، واجتهدوا في ذلك اجتهادا كبيرا.

قال ابي أبي الحديد في شرح نهج البلاغة «وما أقول في رجل تعزى إليه كل

فضيلة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها وسابق مضمارها، ومجلي حلبتها. كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى. وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأن شرف العلم بشرف المعلوم. ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نقل، وإليه انتهى ومنه ابتدأ. فان المعتزلة الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلم الناس هذا الفن تلامذته وأصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن مُحَمَّد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه عليه السلام».

ومن خوارق العادات ما رواه صاحب الأغاني[١] من أن عليا عزم على الركوب، فلبس ثيابه، وأراد لبس الخف، فلبس أحد خفيه ثم هوى إلى الآخر فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود[٢]وانساب فدخل جحرا فلبس علي بن أبي طالب الخف. وفي ذلك يقول السيد الحميري:

ألا يا قــومُ للعجــبَ العُجَــابِ ... لخُــفِّ أبي الحُسْــنِ وللِحُبــابِ
أتَــى خُفًّــا لــه فانســاب فيــه ... ليـــنَهْشَ رِجلَـــهُ منـــه بِنَـــابِ
فَخَــرَّ مــن الســماءِ لــه عُقَــابٌ ... مــن الْعُقبــانِ أو شِــبْهِ العقَــاب

فطــار بــه فحلَّــق ثُمَّ أَهْــوَى ... بــه لــلأرْض مــن دون السَّــحَابِ
إلى جُحْــرٍ لــه فانســاب فيــه ... بّعيـــدِ العَقْـــرِ لم يُـــرْتَجْ بـبَـــاب
كريـهُ الوجْـهِ أسـودُ ذو بَصـيص ... حديـــدُ النَّـــاب أَزْرَقُ ذو لُعَـــاب
وَدْوفِــعَ عــن أبي حســن علــيّ ... نقيـــعُ سُمَامِـــهِ بعـــد انْسِـــيَابِ

***

(١) ص ٦ جـ١.

(٢)الأسود: العظيم من الحيات.

ولما شاع التدوين وانتشر التأليف ظهرت كتب كثيرة في مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أصحاب رسول الله. ذكر ياتوت[1] أن الطبري «رجع إلى طبرستان فوجد الرفض قد ظهر، وسب أصحاب رسول الله ﷺ بين أهلها قد انتشر، فأبلى فضائل أبي بكر وعمر حتى خاف أن يجري على لسانه ما يكرهه فخرج منها من أجل ذلك».

قال ابن أبي الحديد[2] «ولقد كان الفريقان في غنبة عما اكتسباه واجترحاه، ولقد كان في فضائل علي عليه السلام الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما، فإن العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل، ومن تعديد المحاسن إلى تعديد المساويء والمقابح».

كانت هذه الكتب الكثيرة التي ألفت عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي مبنية على الخيال، فيها أساطير وخرافات فهي قصص أدبية فيها لذة كبيرة ومتعة عظيمة. وقد انتشرت هذه القصص بين الجمهور خصوصاً ما دار منها حول علي وأبنائه وشُغف العامة بها شغفاً عظيما وأقبلوا على تلاوتها في مجالس السمر. ومن هذا القبيل قصص كتبت في عصور مختلفة عن آل البيت مثل السيدة زينب حارسة مصر، والحسن والحسن والسيدة نفيسة والسيدة عائشة والخضر وغير هؤلاء. ثم تجاوز الأمر آل البيت إلى الأولياء والأقطاب، فوضعت كتب عن السيد البدوي، والسيد أحمد الرفاعي، وإبراهيم الدسوقي، وعبد الرحيم القنائي، والسيد أبي الحجاج.

وهكذا اجتهد المسلمون شيعيين وسنيين في نشر الخرافات والأوهام

---

(١) معجم الأدباء جـ ٨٥/١٨.

(٢) المجلد الثالث طبع الحلب ص ١٧.

والأساطير والأباطيل حول زعماء المسلمين من آل البيت وغيرهم فتأثرت بها عقائد العامة وتصوراتهم في العصور المختلفة، وترتب على ذلك أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تركوا الإسلام الصحيح الذي يقوم على التوحيد، واتخذوا أربابا كثيرين يدعونهم من دون الله إذا مسهم الضر.

فنرى من هنا أن التشيع قد أخرج نوعا من الأدب كان سببا في الهبوط بالمسلمين إلى هوة سحيقة من التأخر والانحطاط. وقد أفلح الوهابيون في القضاء على كثير من هذه الخرافات في داخل بلادهم، أما في الأقطار الإسلامية الأخرى فالحال باقية كما هي عليه حتى بين طبقة المتعلمين.

(٥) انتحال القول

ولم يقف أثر التشيع في النثر العربي عند ما قدمناه بل تعداه إلى شيء آخر، وهو وضع أدباء الشيعة لأقوال وخطب ورسائل وإسنادها إلى أئمتهم وبخاصة علي بن أبي طالب. فقد أخذ ما ينسب إليه من خطب وأمثال وحكم يزداد يوماً بعد يوم، حتى أتى الشريف الرضى فجمع كل ما ينسب إليه في كتاب ضخم سماه "نهج البلاغة| ونحلوه كلاما يخلو من أشيع الحروف في الكلمات وهو حرف الألف. ولا يعقل أن يظهر مثل هذا التكلف قبل عصر العباسيين.

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق ومثال ذلك «وإنك أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهب فكرها مكيفا، ولا في رويات خواطرها فتكون محدودا مصرفا».

ومما ينسب إليه قوله «سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين كتفي علما جمًّا

خبرني به حبيبي رسول الله صلي الله عليه وسلم. فقام إليه صعصعة ابن صوحان، فقال له أمير المؤمنين: متى يخرج الدجال؟ فقال له أقعد يا صعصعة، فقد علم الله جل ثناؤه مقامك، ولكن له علامات وهنات وأشباه يتلو بعضها بعضا حذو النعل بالنعل تكون في حول واحد فإن شئت نبأتك بعلاماته. فقال عن ذلك سألتك يا أمير المؤمنين، قال له: أعقد بيدك يا صعصعة. إذا أمات الناس الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلوا الكذب، وأكلوا الربا، وأخذوا الرشا، وشيدوا البناء، واتبعوا الأهواء، وباعوا الدين بالدنيا، واستخفوا بالدماء، وكان الحلم ضعفا، والظلم فخرا، والأمراء فجرة، ووزراؤهم وأمناؤهم خونة، وقراؤهم فسقة، ويظهر الجور، ويكثر الطلاق وموت الفجاءة، وحليت المصاحف، وزخرفت المساجد، وطولت المنابر، وخربت القبور، ونقضت العهود، واستعملت المعازف، وشربت الخمور[1]».

فظاهر من هذه القطعة أنها لا يمكن أن تصدر إلا عن شخص عاش في العصر العباشي الثاني، حينما انغمس الناس في الترف والنعيم، فأنشأوا القصور الفخمة، وأقاموا المساجد العظيمة، وتأنقوا في بنائها وزخرفوها وبرعوا في زخرفتها. وشملت عنايتهم جميع فروع الحياة من ملبس ومأكل ومسكن. وتفننوا في كتابة المصاحف وتحليتها بالذهب والفضة، وأبدعوا في ذلك إبداعاً عظيماً. فأين كل هذا من عصر عليّ؟

وعلاوة على نا تقدم فإن أدباء الشيعة وضعوا كثيرا من القطع الأدبية والخطب والرسائل التي تؤيد مذهبهم وتدعم رأيهم أو التي ترفع من شأن علي وأبنائه، وأجروها على ألسنة أشخاص مختلفين. ومثال ذلك ما رواة أبو علي

---

(١) نهج البلاغة.

القالي[1] في كتاب الأمالي من أن معاوية قال لضرار الصدائي: يا ضرار صف لي عليا ﷺ. قال أعفني يا أمير المؤمنين. قال لتصفنه. قال: أما إذ لابد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزيرَ العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن. كان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته، ولا نبتدئه لعظمته، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه وقد مثل في محرابه، قابضا على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين. ويقول يا دنيا غرى غيري. إلي تعرضت؟ أم إليَّ تشوفت؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها. فعمرك قصير، وخطرك حقير. آه من قلة الزاد، وبعد السفر ووحشة الطريق. فبكى معاوية، وقال: رحم الله أبا الحسن «وفي رواية أخرى بكى معاوية ووكف دموعه على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بكمه: وقد اختنق القوم بالبكاء، وقال رحم الله أبا الحسن». كان والله كذبك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح واحدها في حجرها.

أما بعد، فهل كان معاوية يجهل عليا ويحتاج إلى من يصفه له؟ كلا! لقد كان معاوية يعرف عليا معرفة جيدة ولا يجهل شيئاً من أخلاقه وعاداته.

ثم إنك ترى بعد ذلك أن معاوية ومن معه بكوا حتى كادوا يختنقون من البكاء، تدفقت دموعهم، وانهمرت عَبَرَاتهم. ثم ترى معاوية يقول: رحم الله أبا

---

(1) أمالي القالي جـ ٢ ص ١٤٩.

الحسن.

وقد سبق لك أن عرفت أن معاوية كان يوصي عماله بأن يختتموا خطبهم في المساجد بسبب عليّ وآل بيته والترحم على عثمان والاستغفار له. قال معاوية للمغيرة «لا تتحم عن شتم عليّ وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم وترك الاستماع لهم وبإطراء شيعة عثمان والإدناء لهم والاستماع لهم» وقد قتل كثيرين ممن رفضوا أن يتبرأوا من عليّ.

فإذا من السهل علينا أن ندرك أن هذه القطعة موضوعة، وقد أخفق واضعها فيما أراد ولم يوفق فيما سعى.

***

وقد أفرد ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد فصلا خاصا للوافدات على معاوية من نساء زعماء الشيعة اللاتي قتل أزواجهن في الحرب، ومن الوافدات عليه سودة ابنة عمارة، وبكارة الهلالية والزرقاء، وأم الخير بنت الحريش. وقد زرى الشعبي أقوال هؤلاء النسوة مع معاوية، وفيها مدح لعليّ واعتذار لمعاوية وطلب الصفح والعفو. وتنتهي هذه الأقوال بأن يسأل معاوية كلا منهن عن حاجتها ويجزل لهن العطاء ويردهن إلى ديارهن إلا أورة بنت عبد المطلب فإنها لم تسأله شيئاً وانصرفت وهي غاضبة ناقمة، ساخطة على الدهر ما فعل بآل علي. ونحن مضطرون إلى الشك في صحة هذه الأقوال لأنها أتت عن طريق الشعبي وهو شيعي يكره الأمويين وقد خرج عليهم مع عبد الرحمن بن الأشعث أيام الحجاج وعفا عنه بنو أمية وأخيرا، والشيعة مشهورون بالكذب والاختلاق. أنظر إلى كثير حين يقول في مُحَمَّد بن الحنفية.

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي

فلما قيل هو رأيت كعبا. قال: لا، قيل له فلك قلت خبرناه كعب قال: بالتوهم.

وفضلا عما تقدم فإن الشعبي كان يشرب الخمر، ولم يكن متمسكاً بأهداب الدين والفضيلة.

ولعل من أروع ما أتى به صاحب العقد الفريد المناظرة بين المأمون والعلماء واحتجاجه عليهم في فضل علي. فقد روي أن المأمون جمع أربعين عالما من المتفقهين في الدين وكان على رأسهم إسحاق بن إبراهيم ابن إسماعيل بن حماد بن زيد. وبدأ المأمون حديثه معهم بقوله «إن أمير المؤمنين يدين الله على أن علي بن أبي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله ﷺ، وأولى الناس بالخلافة له». وهذه المناظرة طويلة وممتعة فليرجع إليها القاريء إن شاء. وهي من شك من وضع أحد دعاة الشيعة. وقد أورد ابن عبد ربه في مكان آخر ما نصه «قال المأمون لعلي بن موسى: علام تدعون هذا الأمر، قال: بقرابة علي وفاطمة من رسول الله ﷺ. فقال له المأمون: إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله ﷺ من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي أو من هو في قعدده. وإن ذهبت إلى قرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الأمر بعدها للحسن والحسين، فقد ابتزهما على حقهما وهما حيان صحيحان فاستولى على ما لا حق له فيه فلم يجد علي بن موسى جواباً».

فالكلام الذي نسب إلى المأمون في فضل علي وإن كان من وضع الشيعة أنفسهم إلا أن الثابت أن المأمون كان يميل إلى العلويين، وقد عهد بولاية العهد من بعده إلى علي بن موسى الذي سبق ذكره ولكن هذا مات قبل أن يتولى مقاليد الأمور وقد ادعى الشيعة أنه مات مسموما، وربما كان هذا صحيحا، فلعل المأمون رأى رأيا ثم بدا له غيره فتخلص من علي بأن دس له السم.

والدليل على ذلك أن المأمون أجرى ولاية العهد بعد وفاة علي في العباسيين مع أنه كان قادراً على اختيار شخص آخر من العلويين لو أنه ثبت على رأيه الأول.

الفصل الثاني

خطباء الشيعة

الإمام علي

مولده: ولد قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة. وكانت ولادته بمكة بالكعبة.

وفي ذلك يقول السيد الحميري:

ولدتـــه في حــــرم الإلـــه وأمنـــه   والبيــت حيــث فنــاؤه والمســجد
بيضــــاء طــــاهرة الثيـــاب كريمـــة   طابــت وطــاب وليــدها والمولــد
في ليلـــة غابـــت نحـــوس نجومهـــا   وبــدت مــع القمــر المنــير الأسـعد
مـــا لـــف في خـــرق القوابـــل مثلـــه   إلا ابــــن آمنـــــة النــــبي محمد

ثقافته وتهذيبه:

حفظ الإمام علي القرآن حفظا جيدا ووعي الحديث وتفقه في الدين، وتأثر فصاحة الرسول وبلاغته، كما وقف على كثير من شعر من سبقه من الشعراء، فلا عجب أن كان فارساً من فرسان البلاغة، وعلما من أعلام البيان. قال الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي[1] «بهذه الخصال الثلاث– يعني جمال الحضارة الجديدة، وجلال البداوة القديمة، وبشاشة القرآن الكريم– امتاز الخلفاء الراشدون. ولقد كان المجلي في هذه الحلبة عليّ صلوات الله عليه. وما أجسبني أحتاج في إثبات هذا إلى دليل أكثر من نهج البلاغة، ذلك الكتاب الذي أقامهالله حجة واضحة على أن عليا ﵇ قد كان أحسن مثال حي لنور القرآن

---

(1) في مقدمة شرحه لنهج البلاغة.

وحكمته، وعلمه وهدايته، وإعجازه وفصاحته».

وقد سبق أن ذكرنا أن الخطب التي تنسب إلى علي بن أبي طالب جمعت كلها في كتاب ضخم سمي «نهج البلاغة». والآن نريد أن نتكلم عن هذا الكتاب الذي هو أثر من أنفس الآثار التي تركها التشيع في الأدب العربي.

نهج البلاغة

كان الكلام الذي ينسب إلى علي مدونا في كثير من الكتب. وقد بقى كذلك حتى جاء الشريف الرشى فحسن له بعض أصدقائه كما قال أن يجمع ما يعزى إلى علي من خطب ومواعظ حكم، ما صدر عنه من رسائل. قال في مقدمة النهج: «وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواعظ وآداب، علما أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعا في كلام ولا مجموع الأطراف غي كتاب... فأجبتهم إلى الابتداء بذلك، عالما بما فيه من عظيم النفع، ومنشور الذكر ومذخور الأجر».

ترتيب الكتاب: قال الشريف الرضى «ورأيت كلامه عليه السلام يدور على أقطاب ثلاثة: أولها الخطب والأوامر، وثانيها الكتب والرسائل، وثالثها الحكم والمواعظ. فأجمعت بتوفيق الله على الابتداء باختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحكم والأدب، مفردا لكل صنف من ذلك بابا، ومفصلا فيه أوراقا لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عني عاجلا، ويقع إلي آجلا. وإذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء حوار، أَو جواب سؤال، أو غرض آخر من الأغراض في غير الأنحاء التي ذكرتها وقررت القاعدة

عليها نسبته إلى أليق الأبواب به، وأشدها ملاءمة لغرضه. وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير متسقة، ومحاسن غير منتظمة، لأني أوردت النكت واللمع، ولا أقصد التتالي والنسق».

محتوياته: ضم كتاب نهج البلاغة بين دفتيه ٢٤٢ خطبة وكلاما و٧٨ كتابا ورسالة و ٤٩٨ كلمة من روائع الحكم وجوامع الكلم.

شروحه: شروح هذا الكتاب تنيف على الخمسين. والمعروف منها الآن لدى الناس:

١- شرح ابن أبي الحديد. وهو عبد الحميد بن هبة الله المدائني المشهور بأبن أبي الحديد. ولد عام ٥٨٦ هـ وتوفى عام ٦٥٦ هـ أهداه إلى الوزير ابن العلقمي رئيس الشيعة ببغداد في ذلك الوقت، وفي أيام هذا الوزير زالت الخلافة العباشية من الوجود. وابن أبي الحديد وإن ادعى أنه معتزلي إلا أني أشك في هذا الإدعاء أنه كان شيعيا متعصبا. وقد طبع هذا الشرح بمصر عام ١٣٢٩ بمطبعة الحلبي. وهو أشهر الشروح التي ظهرت لهذا الكتاب.

٢- شرح كمال الدين بن ميثم النجراني. وهو من علماء القرن السابع عشر. قضى شطرا من حياته ببغداد، وقد جاء في مقدمة شرحه «جعلت عذا الكتاب، بعد كتاب الله وكلام رسوله، مصباحا أستضيء به في الظلمات، وسلما أعرج به إلى طبقات السموات» وقد فرغ منه في رمضان من عام ٦٧٧هـ. وطبع ببلاد فارس سنة ١٢٧٤ هـ ويقع في نحو أربعمائة صفحة من الحجم الكبير.

٣- شرح ميرزا حبيب الله بن مُحَمَّد بن هاشم الهاشمي العلوي الموسوي الأزربجاني. وهو من علماء إيران. كان حيا في عام ١٣٠٣ هـ. وقد أهدى شرحه إلى

شاه إيران مظفر الدين خان. وهذا الشرح ضخم جداً في أربعة أجزاء من الحجم الكبير يتألف كل جزء من أربعمائة صفحة. طبع ببلاد فارس عام ١٣٥١ هـ وأطلق عليه اسم «منهاج البراعة ونشرع الفصاحة».

٤- شرح الشيخ مُحَمَّد عبده وهو لا يقاس بالنسبة لغيره من الشروح إذ اقتصر فيه صاحبه على إيضاح الصعب من المفردات.

***

لقد اهتم أدباء الشيعة بشرح هذا الكتاب اهتماما كبيرا، وبالغوا في الإسهاب والتطويل، وملئوا شروحهم بالخرافات والخزعبلات التي تضحك الثكلى.

***

منزلته: ورد في مقدمة شرح حبيب الله لكتاب نهج البلاغة ما نصه «هو كتاب في الاتقان تلو الفرقان، لكونه مواعظ أمير المؤمنين عليه السلام، وكلماته المشهورة على لسان المسلمين، المشتملة على إثبات الصانع، وإظهار البدائع، والتوحيد بالبرهان القاطع، والبيان النافع والحكمة والموعظة الحسنة، والقصص والأمثال».

وقال مُحَمَّد حسن نايل المرصفي: «اجتمع لعلي (ع) في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء، وأفذاذ الفلاسفة، ونوابغ الربانيين من آيات الحكمة السامية، وقواعد السياسة المستقيمة، ومن كل موعظة باهرة، وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر. خاض علي في هذا الكتاب لجة العلم والسياسة والدين، فكان في كل هذه المسائل نابغة مبرزا. ولئن سألت عن مكان كتابه من الأدب بعد أن عرفت مكانه من العلم، فليس في وسع الماتب المسترسل،

والخطيب المصقع والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية في وصفه، والنهاية في تقريظه».

وقال مُحَّد عبده «تأملت جملا من عباراته من مواضع مختلفات، وموضوعات متفرقات. فكان يخيل لي في كل مقام أن حروبا شبت، وغارات شنت. وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة، وللريب دعارة، وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة، في عقود النظام، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج، فتفل من دعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس، فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر ومرج الشك في خمود، وهرج الريب في ركود. وأن مدبر تلك الدولة وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب.

«بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع. أحس بتغير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية، في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية توحي إليها رشادها، وتقوم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض النزال إلى جواد الفضل والكمال. وطورا كانت تنكشف إلي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور، قد تحفزت للوثاب ثم انقصت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها. واغتالت فاسد الأهواء، وباطل الآراء».

***

أما بعد، فقد أتيت هنا بأقوال ثلاثة رجال في كتاب نهج البلاغة وهي قطع مديح ألقي بغير حساب ظنا من كاتبيها أنهم يظفرون برضا الله ورسوله إن هم أزجوا هذا المديح. ولم يحاول أحد منهم أن يتناول النهج تناولا علميا يعود

على القاريء بالنفع.

***

بحث وتحقيق: وقد رأيت لزاما علي في هذا لامقام أن أتناول نهج البلاغة بالبحث والتحقيق سالكا في ذلك سبيل العلماء الذين يفيدون القراء بما يقدمةن لهم من حقائق ناطقة. أما هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إرسال المدح والثناء فمهتهم هينة لينة، فما أيسر أن تقول «هو كتاب في الاتقان تلو الفرقان»، وما أسهل أن تنمق في مدحه الألفاظ كما نمقها الشيخان حسن نايل المرصفي ومُحَّد عبده. ولكن هذا لا يفيد القاريء في كثير أو قليل. وبما أني لم أخرج هذا الكتاب لأمدح فيه أو أقدح، بل حرصت فيه كما يرى القاريء على إظهار الحقائق وإبرازها، لذلك لم أسر في الطريق التي سار فيها هؤلاء المادحون.

***

صاحب النهج: في كتاب نهج البلاغة أمور كثيرة تجعلنا نشك في نسبة أكثر ما فيه إلى الإمام علي. وهذا رأي سبقنا إليه القدماء. قال ابن أبي الحديد «كثير من أرباب الهوى يقولون إن كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة. وربما عزوا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسين وغيره».

غير أن القدماء لم يشرحوا لنا أسابا الشك. أجل! لقد أبدوا ارتبابهم ثم صمتوا. وقد رأيت لزاماً عليّ أن أتناول أسباب الشك في نسبة ما في النهج إلى عَلِيّ بشيء من التفصيل.

***

أسباب الشك:

(أولا) سبق أن ذكرنا أن نهج البلاغة قد ضم بين دفتيه ٢٤٢ خطبة

وكلاماً، ٧٨ كتابا ورسالة، ٤٩٨ حكمة. وهذا العدد الهائل لم يدون إلا في العصر العباسي. وليس من شك في أن حفظ هذا المقدار الضخم من الأمور المتعذرة. ومن هذه الخطب ما هو طويل جداً وليس من السهل وعيه وتذكر ألفاظه بعد أجيال. فقد بلغ عهد عليّ للأشتر النخعي مائتين وخمسين سطرا. وبلغت بعض خطبه مائتي سطر، وبعضها ينقص قليلا عن المائتين. وإذا علمنا أن القرآن على عظيم خطره، وجليل شأنه كان مظنة أن يضيع له لم يتداركه المسلمون الأولون، رأينا أنفسنا مسوقين إلى النظر بعين الارتياب فيما جاء منسوبا إلى علي في هذا الكتاب. وما الداعي إلى كتابة مثل هذا العهد المفرط في الطول ولم يكن الأشتر غريبا عن علي بل كان من أقرب الناس إليه. ولم يسبق أن كتب أحد من الخلفاء عهدا في مثل هذا الطول؟

(ثانيا) إذا ألقيت نظرة على الخطب المنسوبة لعليّ لم تتمالك نفسك من الضحك، وذلك لما جاء في كثير منها من أمور وقعت بعد عصر على كقيام الدولة الأموية، وسقوطها والقضاء على الأمويين قضاء مبرما بغير رحمة ولا شفقة، وقيام دولة بني العباس، وظهور الفتن والقلاقل وانتشار الحروب والثورات، وترك الناس للدين وانغماسهم في الترف والنعيم. وقد سبق لنا أن أوردنا مثالا لذلك عند الكلام على «انتحال القول» ولا نرى بأساً من أن نورد للقاريء مثالا آخر ليزداد إيماناً على إيمان إن لم يكن قد اطلع على النهج. فمما ينسب إليه قوله «فو الذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها[1] وقائدها، وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها ومن يقتل من أهلها قتلا، ويموت منهم موتا».

---

(١) الداعي إليها.

ألا إن أخوفَ الفتنِ عندي عليكم فتنةُ بني أميةَ، فإنها فتنةٌ عمياءُ مظلمة، عمت خُطتها وخَصَّت بليتها، وأصاب البلاءُ من أبصر فيها، وأخطأَ البلاءُ من عمى عنها. وايم اللهِ لتَجِدُنّ بني أميةَ لكم أربابَ سوءٍ بعدي كالنَّابِ الضروس تَعذِمُ بفيها، وتَخْبط بيدها، وتَزْبُنُ برجلها وتمنعُ درَّها. لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلاَّ نافعا لهم أو غيرَ ظائرٍ بهم. ولا يزالُ بلاؤهُمْ حتى لا يكونَ انتصارُ أحدكِم منهم إلا كانتصارِ العبد من ربِّهِ، والصاحِبِ من مُسْتَصْحِبهِ. تردُ عليكم غتنتُهم شوهاءَ مَخْشِيّةَ، وقِطَعا جاهليةً، ليس فيها منارُ هُدًى، ولا علم يُرى، نحن أهل البيت فيها بمَنْجَاةٍ، ولسنا فيها بدعاة. ثم يفرجُها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومُهم خسفا، ويسوقُهم عُنْفا، ويسقيهم بكأس مُصَبَّرَةِ، لا يعطيهم إلا السيف، ولا يَحْلِسُهُمْ إلا الخوف. فعند ذلك تودُّ قريشٌ بالدنيا وما فيها لو يرونني مَقاما واحدا، ولو قَدْرَ جَزْرِ جَزُرٍ لأقبل منهم ما أطلب اليوم بعضه فلا يُعطونني».

وأنت واجد خطباً كثيرة من هذا النوع. وهي من غير شك موضوعة ومحمولة على الإمام عليّ الذي لم يكن علام الغيوب. فهل هذه الخطب بلغت من الإتقان ما يجعلها تلو الفرقان؟ وهل ترى فيها ما رآه مُحَمَّد عبده حين يقول «وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة في عقود النظام، وصفوف الانتظام تنافح بالصفيح الأبلج، والقويم الأملج وتمتلج المهج بروائع الحجج» فأين هو القويم الأملج؟ وأين هي روائع الحجج؟

(ثالثاً) وأمر ثالث يجعلك تزداد شكا وارتيابا وهو أن كثيرا من الخطب اشتمل على علوم لم تعرف في المجتمع الإسلامي إلا بعد عصر عليّ بزمن طويل، كدقائق علم التوحيد، وأبحاث الرؤية والعدل، والتوسع في كيفية كلام الخالق وابتعاده عن صفات الجسم وكيفياته، وتنزهه عن مجانسة مخلوقاته، كما تناولت

موضوعات وصفية لم يطرقها المسلمون إلا في عصور متأخرة كوصف النملة والخفاش والطاووس. ومثال ذلك قوله من خطبة يذكر فيها ابتداء خلق السماء والأرض وخلق آدم «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون. الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن. الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود؛ ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه. أول الدين معرفته، وكما معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له، نفى[1] الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عده. ومن قال فيم فقد ضمنه، ومن قال علام فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة. فاعل لا بمعنى الحركات والآلة... الخ».

وفي هذه الخطبة اصطلاحات لم تعرف في عصر الإمام عليّ، بل عرفت بعده بقرون، كما أن التعبيرات التي انطوت عليها هذه الخطبة لم تظهر إلا على أيدي علماء الكلام في العصر العباسي. وعلاوة على ما تقدم فإنها رتبت ترتيبا منطقياً يبدأ بمقدمة تنتهي إلى نتيجة هي نفي الصفات عن الله، وهذا أمر كان موضع خلاف شديد بين الفرق الإسلامية ولم يعرف إلا في أيام العباسيين. فهي لا ريب موضوعة بلا ريب على الإمام عليّ، وهي ليست في الإتقان تلو الفرقان، ولا أحد فيها ما وجده مُحَمَّد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج

(١) هذا كلام أرسطو الذي لم يعرف إلا بعد عصر الترجمة.

الذي يمتلج المهج بروائع الحجج.

(رابعا) وأمر رابع يجعلك تمعن في الشك وتسرف في الارتياب وهو أنك تجد في خطب كثيرة روحا غريبة عن الإسلام، فيها تناقض مع أحكام الدين الحنيف وأصوله، وفيها روح ضار جداً بالمجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية. ترى فيها دعوة إلى الرهبنة وترك ما أحل الله من الطيبات في هذه الحياة الدنيا. ومثال ذلك قوله يخاطب شخصا يسمى «نوفا» طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الأخرة. أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والكتاب شعارا، والدعاء دثارا، وقرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح بن مريم فإن الله عز وجل أوحى إلى عبده المسيح بن مريم أن مر بني اسرائيل ألا يدخلوا بيتا من بيوتي إلا بقلوب طاهرة، وأبصار خاشعة، وأيد نقية. فإني لا أستجيب لأحد منهم دعوة لأحد من خلقي قبله مظلمة. يانوف لا تكونن شارعا ولا عشارا[١] ولا شرطيا ولا عريفا[٢] ولا صاحب كوبة [٣] ولا صاحب عرطبة[٤]».

وليس من المعقول أن يصدر مثل هذا القول من عليّ. وكيف ينهي الناس على أن يكونوا شعراء، وهو نفسه كان شاعرا ونسب إليه ديوان مشهور بين الناس؟؟ كيف ينهي الناس عن أن يكونوا شعراء والإسلام أباح لهم ذلك، والنبي كان ممن يطربون للشعر ويحرضون على قوله ؟ وكيف ينهي عليّ الناس عن أن يكونوا عشارين أو من رجال الشرطة؟ ومن يجمع أموال الدولة ومن يسهر على حفظ الأمن والنظام فيها وفي هذه الخطة تحريض على قرض الدنيا على منهاج

---

(١) الذي يجمع العشور.

(٢) منصب دون الرئيس.

(٣) الكوبة الطبل.

(٤) عرطبة: العود وهو من آلات الطرب.

االمسيح بن مريم. وما شأن المسلمين بمنهاج المسيح ولهم من سنة رسولهم خير مرشد وأفضل دليل.

لا شك في أن نسبة مثل هذه الخطبة للإمام عليّ تحط من شأنه، وتضع من منزلته. ونحن نجل الإمام عليا وننزهه عن قول مثل هذه الخطب التي لا أرى أنها في الإتقان تلو الفرقان. ولا أرى فيها ما رآه مُحَمَّد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج.

(خامسا) وأمر خامس يجعلك تجزم بأن جل ما في النهج ليس لعليّ وهو الاختلاف العظيم في أساليب الخطب. ترى كلاما مرسلا على سجيته بغير تكلف ولا تصنع ومثال ذلك قوله من إحدى خطبه «أنبئت بسرا فد أطلع اليمن، وإني والله لأظن هؤلاء القوم سينالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل... الخ».

على حين أنك ترى له نوعا آخر من الخطب يظهر فيه آثار الصنيعة والتكلف المرذول، والحرص الشديد على السجع وغير ذلك مما لم تعرفه العرب في عصر عليّ، بل عرف في عصور متأخر جداً ومثال ذلك ما ينسب إليه «الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير رؤية. الذي لم يزل دائماً قائماً إذ لا سماءٌ ذات أبراج، ولا حجبٌ ذات أرتاج، ولا ليلٌ داج، ولا بحرٌ ساج، ولا جبل ذو فجاج، ولا فجٌ ذو إعوجاج، ولا أرضٌ ذات مهاد، ولا خلقٌ ذو اعتماد».

وقوله في وصف السماء «ونظم بلا تعليق رهوات فُرُجها ولاَحَمَ صدوع انفراجها، ووشج بينها وبين أزواجها، وذلل للهابطين بأمره، والصاعدين بأعمال خلقه حزونة معراجها، ناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عري أشراجها».

وانظر إلى الحرص على الجناس في قوله «أرسله لإنفاذ أمره، وإنهاء عذره،

وتقديم نذره، وأحصاكم عددا، ووظف لكم مددا، في قرار خبرة، ودار عبرة. غرور حائل، ضوء آفل، وظل زائل، وسناد مائل».

ثم تأمل قوله «فمن أخذ بالتقوى عزبت عنه الشدائد بعد دنوها واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها وتحدبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النعمة بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد رذاذها». ترى فقرا متساوية في عدد كلماتها وفي التزام كلمة «بعد» في كل منها واشتمال كل فقرة على طباق،فضلاً عن أنها تدور كلها حول معنى واحد. فالآثار الأدبية التي وصلت إلينا من عصر عليّ تختلف عن هذا النمط المتكلف اختلاف كبيرا وتبتعد عنه ابتعادا ظاهرا. وهذا شيء يرغمنا على رفض نسبة تلك الخطب إلى الإمام علي، وهي ليست تلو الفرقان في الإتقان، ولا أرى فيها ما رآه محمد عبده من الصفيح الأبلج، والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج.

(سادسا) وأمر سادس يدفعك إلى رفض كثير مما ينسب لعليّ، وهو أنك ترى خطبا كثيرة فيها وصف للحياة الاجتماعية على نحو لم يعرف إلا في عصور متأخرة. ترى في هذه الخطب طعنا على الوزراء والأمراء والحكام والولاة والعلماء والقضاة، طعنا شديداً في السلوك والأخلاق وفي الذمم والضمائر، ووصفا للقضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة. ومثال ذلك ما ينسب إليه «إنَّ أبغضَ الخلائقِ إلى اللهِ رَجُلانِ: رَجلٌ وَكَلَهُ إلى نفسِه، فهو جَائِرٌ عن قَصْدِ السَّبيل، مَشْغُوفٌ بكلامِ بِدْعَةٍ، ودُعَاءِ ضَلاَلَةٍ. فَهُو فِتْنَةٌ لمنْ اْفتَتَنَ به، ضَالٌّ عَن هَدْيِ مَنْ كان قبلَه، مُضِلّ لمن اْقتَدَى بِه في حياتِه وبعدَ وفاتِه، حَمَّالٌ خَطَايَا غَيْرِه، رَهْنٌ بِخَطيئَتِهِ. ورَجُلٌ قَمَشَ جَهْلاً، مُوضِعٌ في جُجَّالِ الأُمَّةِ، عادٍ فس أَغْبَاشِ الفِتْمَةِ، عَمٍ بما في عَقْدِ الهُدْنّةِ. قد سَمَّاهُ أَشْبَاهُ الناس عَالِما وليسَ به.

بَكَّر فاسْتَكْثَرَ مَن جَمْعِ ما قَلَّ منهُ خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ، حتى إذا ارْتَوى من آجِنٍ واكْتَنزَ من غَيْرِ طَائلٍ، جَلَسَ بَيْن الناسِ قاضِيا ضَامِنا لِتَخْليصِ ما التَبَسَ على غَيْرِه. فإنْ نزَلْتَ به إحدى المُبْهماتِ هَيَّأ لها حَشْواً رَثًّا مِنْ رَأيهِ، ثُمَّ قَطَعَ به. فَهُوَ مِن لُبْسِ الشُّبُهَاتِ في مثل نَسْجِ العَنْكُبوت لا يَدْرِي أصَابَ أم أَخْطَأَ.فإنْ أصَابَ خَافَ أن يكونَ قد أخْطأَ، وإن أَخْطأَ رَجَا أن يكُون قد أصابَ، جَاهِلٌ خَبَّاطُ جَهالاتٍ، عَاشٍ رَكَّابُ عَشَواتٍ، لَمْ يَعَضَّ عَلَى العِلْمِ بِضرْسٍ قَاطِعٍ، يُذْرِي الرِّوَايَاتِ إذْرَاءَ الرِّيحِ الهشيم، لا مَليءٌ والله بإصْدَارِ ما وَرَدَ عَلَيْه، ولا هُوَ أَهْلٌ لَما فُوِّضَ إلِيْه. لايَحْسب العلمَ في شيءٍ مما أنكره ولا يرَى أَنَّ من وراءِ ما بلغَ مذهبا لغيره، وإنْ أظلمَ أمرٌا كَتَمَ به لما يعلَم من جهل نفسه. تصرُخُ من جَوْرِ قضائِه الدماءُ وتعجُّ منه المواريث. إلى الله أشكو من معشر يعيشونَ جهالا ويموتون ضلاَّلا، ليس فيهم سلعةٌ أَبْورَ من الكتابِ إذا تُلِيَ حقَّ تِلاوتِه، ولا سلعة انفق بَيْعا ولا أغلَى ثمنا من الكتاب إذَا حرِّف عن مواضِعه. ولا عندهم أنكرَ من المعروف، ولا أعرفَ من المنكر».

ومما ينسب إليه إلا في العصر العباسي «تردُ على أحدهم القضيةُ في حكم من الأحكامِ فيحكم فيها برأَيه، ثم تردُ تلك القضية بعينها على غيره فيحكمُ فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاةُ بذلك عند الإمام الذي استَقْضاهُم فيصوبُ آراءَهم جميعا. وإلهُهُم واحد، ونبيُّهم واحد. وكتابُهم واحد. أفأمَرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصَوْه؟ أم أنزلَ اللهُ سبحان دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامهِ؟ أم كانوا شركاءَ فلهم أن يقولُوا وعليه أن يرضى ... الخ» فإذا علمت أن القضاة في أيام عليّ كانوا من الصحابة، ولم يكن هناك أئمة يجتمعون إليهم إلا أبو بكر وعمر وعثمان. ولم يكن هناك آجن يرتوون منه، بل لم يكن لديهم سوى القرآن، ولم يظهر هذا الاختلاف العظيم الذي نرى

صورته في هذه الخطب، قطعت بأنها من وضع قوم عاشوا بعد عليّ بزمن طويل، وكتبوا ثم نسبوه إلى علي اعتقادا منهم بأن فيها ما يرفع شأنه ويسمو بمنزلته. وهي من غير شك ليست في الإتقان تلو الفرقان. ولم أجد فيها ما وجده مُحَمَّد عبده من الصفيح الأبلج والقويم الأملج الذي يمتلج المهج بروائع الحجج.

(سابعا) وأمر سابع يسلمك إلى الريبة في هذا الكتاب. ترى فيه خطبا كثيرة تروي أمورا لا يقبلها العقل من شأنها لو صحت أن تؤيد حق علي في الخلافة. ومثال ذلك ما ينسب إليه: «ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة؟ فقال هذا الشيطان أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنك لست بنبي، ولكنك وزير، وإنك لعَلى خير».

وقوله: «ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن رأسه لعلى صدري. ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني فضجت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلون عليه، حتى واريناه في ضريحه، فمن ذا أحق به حيا وميتا».

وأظن أن القاريء سيضحك معي حينما يقرأ «إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي ولكنك وزير، وإنك لعلى خير». ومعنى هذا أن علياً كان يسمع الوحي كما يسمعه الرسول ويراه كما يراه الرسول لكنه ليس بنبي وإنما هو وزير، ولا أدري ما وظيفة الوزير هنا وما عمله؟. ولا شك في أنك ستغرق في الضحك حينما تقرأ «ولقد وليت غسله صلى الله عليه وآله والملائكة وأعواني فضجت الدار والأفنية، ملأ يهبط وملأ يعرج»، فالملائكة هنا قد نزلوا من السماء أفواجا يساعدون الإمام عليا في مهمته وهي غسل رسول

الله. ولا جدال في أن عليا أعقل بكثير من أن يرسل مثل هذا القول. وليس في نسبته إليه ما يشرفه. كيف يقال بعدئذ إن نهج البلاغة في الاتقان تلو الفرقان؟ وهل في مثل هذا رأي مُحَمَّد عبده الصفيح الأبلج والقويم يمتلج المهج بروائع الحجج؟.

(ثامنا) وأمر ثامن يجعلك ترتاب فيما جاء بنهج البلاغة منسوبا إلى الإمام عليّ. وهو أنك تجد خطبا طال في صدرها حمد الله، وهذه عادة لم تعرف إلا في العصر العباسي في خطب الجمع والأعياد التي تلقى في المساجد، ولم تظهر قط في أيام علي. ومثال ذلك «الحمد لله كلما وقبليل وغسق، والحمد لله كلما لاح نجم وخفق، والحمد الله غير مفقود الإنعام ولا مكافيء الإفضال» وغير هذا كثير.

(تاسعاً) وأمر تاسع يريبك فيما ورد منسوباً لعليّ في نهج البلاغة وهو أنك تجد خطباً فيها ذكر الوصي والوصاية، مع أن عليا لم يقل هذا قط ولم تظهر خرافة الوصي إلا بعد مقتله. ومثال ذلك قوله وقد عنى آل البيت «هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»، وقوله «ومالي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها في دينها! لا يقتصرون أثر نبي ولا يقتدون بعمل وصي»، فهل كانت في عصره تلك الفروق التي يشير إليها؟ أم أنها ظهرت بعده بزمن غير قصير؟.

(عاشرا) وأمر عاشر يقودك إلى الريبة في نسبة ما جاء في النهج إلى علي، وهو أنك تجد خطبا فيها معنى واحد عبر عنه بما يزيد على عشر جمل ومثال ذلك قوله: «لا انفصام لعروته، ولا فك لحلقته، ولا انهدام لأساسه، ولا زوال لدعائمه، ولا انقلاع لشجرته، ولا انقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه، ولا جذ لفروعه، ولا ضنك لطرقه، ولا سواد لوضحه، ولا عوج لانتصابه، ولا عصل[1]

---

(١) التواء.

في عوده، ولا وعث لفجه ولا انطفاء لمصابيحه، ولا مرارة لحلاوته» فهذا إسهاب ممل وإسفاف لا فائدة منه ولا خير فيه، وهو مما لم يعرفه المسلمون الأولون.

في الميزان: أما بعد، فقد وضعنا نهج البلاغة أمامك في الميزان، وأطلعناك على ما يشككنا في نسبة أكثر ما جاء فيه إلى عليّ، وضربنا للناس الأمثال لعلهم يقتنعون. وهناك خطب قليلة باقية فيها روح علي ولكنها لم تسلم من التحريف والتصحيف والتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، وذلك أمر طبيعي في كل ما تأخر تدوينه من الخطب والرسائل وإنك لتجد هذه الخطب القليلة رويت بروايات فيها اختلاف كبير.

أما الأمثال والحكم فمعظمها هندي وفارسي عرفه العرب بعد عصر الترجمة. ولا أدري كيف نسبوها إلى عليّ؟.

خطباء آخرون

كان أئمة الشيعة ينشرون دعوتهم بين الناس سرا، فلم يجدوا أمامهم مجالا للقول فيقولوا، ولا محلا للخطابة فيخطبوا. ولم يظهر بعد علي من الخطباء سوى الحسن والحسين. وجل ما ينسب إليهما موضوع. وليت شعري من الذي روى خطبة الحسين في كربلاء وقد استشهد كل من معه من الرجال؟

ولفاطمة خطب تنسب إليها وقد رووا عنها كثيرا من الأحاديث، ولعلي بن الحسين رسالة تعرف برسالة الحقوق.

وعلى الجملة فقد اجتهد أدباء الشيعة في وضع الخطب والرسائل وجمع الحكمة والأمثال والأدعية ونسبتها لأئمتهم.

الباب الثالث

الفصل الأول

في الشعر

انتحال الشعر

نشط أدباء الشيعة نشاطاً عظيما في وضع الشعر الذي يرفع من شأنهم ويقوي من دعائم مذهبهم، ويحط من شأن أعدائهم. وأجروا هذا الشعر على ألسنة أئمتهم وعلى قوم الآخرين. وقد كثر ذلك الشعر حتى شغل مكانا بينا في الأدب العربي. وكانوا أحياناً يزيدون في قصائد بعض الشعراء ما يؤيد رأيهم ويدعم حجتهم في الخلافة وحق عليّ فيها. وقد ظهر هذا الانتحال في مظاهر مختلفة.

(١) شعر أبي طالب

لقد وضعوا كثيرا من القصائد ونسبوها إلى أبي طالب ليثبتوا بذلك إسلامه، وحسن بلائه في الدين ودفاعه عن النبي وحمايته له، وجهاده في سلبيل الإسلام، فمما ينسب إليه قوله:

ولما رأيتُ القَومَ لا وُدَّ فيهم ... وقد قَطَّعوا كلَّ العُرَى والوسائلِ
قد صارَحُونا بالعداوةِ الأذَى ... وقد طَاوَعُوا أمرَ العدُوِّ المزايلِ

ومنها:

كذَبْتم وبيتِ الله نُبزي مُحَمَّدا ... ولما نطاعنْ دونهَ ونناضِلِ
ونسلُمه حتى نُصَرَّع حولَه ... ونذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

ويــنهضَ قــومٌ بالحديــدِ إلــيكمُ نُهوضَ الرَّوَايا[3] تَحتَ ذاتِ الصّلاصلِ[4]

ومنها:

وأبيضَ[1] يُستَسقَى الغمامُ بوجهِهِ ثمــالَ[5] اليتــامى عصــمةً للأرامــلِ
يَلوذُ بـه الهـلاكُ[2] مـن آل هاشـمٍ فهُــمْ عنــدَه في رَحْمَــةٍ وفَواضِــلِ
ونحـنُ الصَّـميمُ مـن ذُؤابَـةِ هاشـمٍ وآلِ قُصَــيّ في الخُطُــوبِ الأوائــلِ
وســهمٍ ومخــزومٍ تَمــالَوا فــأَّلبوا عَلّيْنَـا العِـدَا مـن كـلَّ طَمْـلٍ وخامـلِ
فعبـدَ منـافٍ أنـتمُ خـيرُ قـومِكُم فــلا تُشْــرِكُوا في أَمْــرِكُم كــلَّ واغــلِ

وهي طويلة أورد منها ابن هشام أربعة وتسعين بيتا ثم قال: «هذا ما صح لي من هذه القصيدة. وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها».

ومثال آخر مما ينسب إلى أبي طالب:

واللهِ لـن يَصِـلوا إليـك بجمْعِهـم حـتى أُوَسَّـد في الـترابِ دّفينـا
فاصدَعْ بأمرِكَ ما عليكَ غضاضةٌ وانشُـرْ بـذّاكَ وقَـرَّ مِنـكَ عُيـونا
ودعَـوْتَني وزَعمْـتَ أَنَّـكَ ناصِـحٌ فلقَـدْ صَـدَقْتَ وكُنْـتَ قَبْـلُ أَمِينـا
وعَرَضْـتَ دِينـا قـد عَرَفْـتُ بأنَّـهُ مِــنْ خَــيْرِ أَدْيانِ البَرِيَّــةِ دِينــا
لـولا المخافـةُ أنْ يكـونَ مَعـرةً لَوَجِــدْتَني سَمْحــا بــذاكَ أَمِينــا

ففي هذا الشعر تكلف ظاهر وتصنع واضح. ترى فيه أبا طالب يظهر استعداده للموت في سبيل الرسول ويأمره بالاستمرار في نشر الدين في غير

---

(١) جمع رواية وهو البعير أو البغل.

(٢) وذات الصلاصل هي المزادة التي ينقل فيها الماء، والصلاصل جمع صلصلة بضم الصادين وهي بقية الماء في الأداوة.

(٣) كريم.

(٤) العماد.

(٥) الفقراء والصعاليك؟

خوف ولا وجل ويعترف له بالصدق في دعوه ويقر بأن الإسلام من خير أديان البرية دينا. هو يعترف بذلك كله ويؤمن به ولكنه لا يعتنق الإسلام خشية العار. وأي عار هذا الذي خشيه أبو طالب ولم يخشه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وغير هؤلاء من عظماء قريش وغير قريش. لو أن أبا طالب آمن حقا كما يظهر من هذا الشعر، لجاهر بذلك ولأعلن إسلامه كما أعلنه غيره من قبل ومن بعد. وكيف يخشى المؤمن الناس والله أحق أن يخشاه؟

(٢) شعر علي

ونظموا شعرا كثيرا ونسبوه إلى الإمام علي. ومثال ذلك ما روي من أن معاوية كتب إلى علي رسالة جاء فيها.

إن[١] لي فضائل كثيرة، كتم أبي سيدا في الجاهلية، وصرت ملكا في الإسلام، وأنا صهر رسول الله ﷺ، وخال المؤمنين وكاتب الوحي. فقال أمير المؤمنين وكاتب الوحي. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أ بالفضائل تفتخر عليّ يابن آكلة الأكباد؟ أكتب إليه يا غلام.

محمَّد النبيُّ أخِي وصِهري ... وحمزةُ سيّدُ الشهداءِ عمِّي
وجعفرٌ الذي يُضْحِي ويُمْسِي ... يَطيرُ مع الملائِكةِ ابنُ أُمِّي
وبنتُ محمدٍ سكنِي وعرسِي ... مشوبٌ لحمُها بدمِي ولحمِي
وسِبْطا أحمدٍ ولدايَ منها ... فأيكُمُ له سهمُ كسهمِي
سبقْتُكُمُ إلى الإسلامِ طرا ... صغيرا ما بلَغْتُ أو أنَ حُلمِي
وأوْصانِي النبيُّ على اختيارٍ ... بِبَيْعتِهِ غَداةَ غديرِ خُمِّ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لمن يلقَى الإلهَ غداً يظُلْمِ

(١) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٤٨.

قال[١] أبو عثمان المازني: لم يصح عندنا أن علي بن أبي طالب عليه السلام تكلن من الشعر بشيء غير هذين البيتين:

تلكــم قــريشٌ تمنــاني لتَقْتُلَــني ... ولا وجَــدِّكَ مــا بَــروا ومــا ظَفِــرُوا
فــإن هَلَكْــتُ فــرهنٌ ذمَّــتي لهُــمُ ... بــذاتِ رَوْقــينِ(٢) لا تَعْفــو لهــا أثَــرٌ

وحكى عن يونس النحوي أنه قال: ما صح عندنا ولا بلغنا أنه قال شعرا إلا هذين البيتين. ولكن صاحب الأغاني[٣] ذكر في ترجمة حسان ابن ثابت ما يفيد أن عليا كان يقزل الشعر. قال «كان يهجو رسول الله ﷺ ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص. فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: اهج عنا القوم الذين قد هجونا، فقال علي ﷺ: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت، فقال: يا رسول الله، أئذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال «ليس هناك» أو «ليس عنده ذلك».

وأقول ربما كان علي يقول البيت أو البيتين من حين إلى حين، ولكنه لم يكن كفؤا للوقوف أمام شعراء المشركين. وإن الذي سأل عليا هجاء المشركين كان يجهل مكانة علي في الشعر وظنه قادرا على الرد على المشركين. ونرى علياً يقول لمن سأله: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت. فكأنه كان واثقا من أن الرسول لن يأذن له بذلك وقد تحقق ظنه، فقال النبي عنه «ليس عنده ذلك».

وعلى كل، فمن المحقق أن الشعر الذي وصلنا منسوباً لعليّ ليس له، وإنما هو من وضع نفر من أدباء الشيعة، وجل شعره الذي ينسب إليه، ضعيف

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٤٦.

(٢) يقال داهية ذات روتين أو ذات ودقين إذا كانت عظيمة.

(٣) الأغاني جـ ٤ ص ١٣٧.

الأسلوب والتركيب، واهي النسيج والتأليف، يدرك المرء هذا الشعر، وأسلوب الشعر في أيام علي بن أبي طالب. ولو أنك تأملت في هذه القصيدة التي مرت بك لأيقنت أنها ليست لعليّ ولا سيما البيتين الأخيرين منها. فعليّ يقول إن النبي اختاره وصيا على المسلمين من بعده، ولو أن الأمر كان كما قال لسلم له المسلمون بالخلافة، ولما نازعه فيها أحد. ولكن قصة غدير خم خرافة اختلقها الشيعة بعد عصر علي وأسندوها إلى ابن عباس. «قالوا: روى ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن آية «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» نزلت في عليّ كرم الله تعالى وجهه حيث أمر سبحانه وتعالى رسوله أن يخبر الناس بولايته فتخوف رسول الله ﷺ أن يقولوا: حابى ابن عمه وأن يطعنوا في ذلك عليه. فأوحى الله تعالى إليه هذه الآية، فقال بولايته يوم غدير يرخُم «وهو موضع بين مكة والمدينة» وأخذ بيده فقال عليه الصلاة والسلام: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه.

لا ريب في أن هذه أسطورة وضعها الشيعة وتكفلوا في وضعها شططا، فرموا النبي بالجبن والخوف وما نعلم عنه ذلك، لأن سيرته عليه السلام المثل الأعلى في الشجاعة والإقدام. ولم يكن النبي ليخشى الناس والله أحق أن يخشاه. وكيف يأمر الله رسوله بإخبار الناس بولايي علي ويتقاعس النبي عن هذاا التبليغ؟؟ ولم لم يذكر الله عليا في القرآن صراحة إن أراد ولايته؟؟.

***

والشعر المنسوب لعلي مجموع في ديوان مطبوع ومتداول بين الناس وقد اهتم كثير من أدباء الشيعة بجمعه وطبعه. ولنضرب للقاريء مثلا آخر مما ينسب لعليّ.

نصرَ الحجارةَ من سفاهةِ رأْيهِ ونصرتُ ربَّ محمدٍ بصَوابِ

فصـدّدْتُ حـين تركتـهُ متَجـدِّلاً | كالجـــذعِ بـــين دَكـــادِك وروابِي
وعففْـتُ عـن أَثوابِـه ولـو أنَّـني | كنــتُ المقَّطـــر بَـــزّني أثْـــوابِي
لا تحســـبَنَّ الله خـــاذلَ دينـــهِ | ونبيِّـــه يا معشـــرَ الأحـــزَابِ

قال ابن هشام: «وأكثر أهل العلم بالشعر يشك في نسبتها لعلي لن أبي طالب» وقد أورد ابن هشام في سيرته قصائد كثيرة تنسب لعليّ ثم عقب كل منها بمثل ما عقب على تلك القصيدة.

ولا أرى بأسا من أن أضع بين يدي القاريء مثلا ثالثا وهو قوله:

مـــالا يكـــونُ فـــلا يكـــونُ بحيلـــةٍ | أبـــدا ومـــا هـــو كـــائنٌ ســـيَكونُ
ســـيكونُ مـــا هـــو كـــائنٌ في وقتـــه | وأخـــو الجهالـــةِ متْعَـــبٌ محـــزونُ
يســـعَى القـــويُّ فـــلا ينـــالُ بســـعْيِه | حظًّـــا ويـــدركُ عـــاجزٌ موهـــونُ

فهذا كلام في القدر لم يعرفه المسلمون الأولون إنما عرفوه عند بدء ظهور علم الكلام، وهذا بعد عليّ بزمن طويل. ثم إن هذا نظم وليس بشعر. هو نظم العلوم الذي لم يظهر إلا في أيام العباسيين.

وآخر مثل أسوقه للقاريء هو ما روى من أن عليا سمع ناقوسا يضرب فقال لمن معه، أتدرون ما يقول هذا الناقوس؟ قالوا لا، قال فإنه يقول:

نِلنَـــا الـــدنْيَا فاســـتَهْوتْنَا | فاســـتَهوتْنَا وأذَلّنْنَـــا
واســـتَلَبْتْنَا لســـنا نـــدري | فيهـــا إلا لَـــوْ قَـــد مُتْنَـــا
واســـتّبْدلنا دارا تَبْقـــىَ | جهـــلا منـــا دارا تَفْـــنَى
يا ابْـــنَ الـــدنْيَا زنْ بالـــدنيا | وزنا وزنا وزنا وزنا
يا ابـــنَ الـــدُّنيا تَفْـــنى الـــدُّنيا | قـــرنا قـــرنا قـــرنا قـــرنا

وهذا أسلوب غريب لم يألفه المسلمون الأولون الذين كانوا يرسلون القول

على أشد ما يكون قوة ومتانة وروعة وجلالة. أما هذا الشعر الضعيف المبتذل الذي يكرر فيه صاحبه الألفاظ إلى درجة الإسفاف، والذي يصنعه صاحبه ويجهد نفسه في صنعته، ويتكلفه ويتعب نفسه في تكلفه فلم يخلق إلا في أواخر أيام بني العباس. وقد رتب واضع هذا الشعر المقدمة ومهد لشعره بقصة صغيرة فجعل عليا يمر ويسمع ناقوسا ويسأل أصدقاءه عما إذا كانوا يعرفون ما يقول هذا الناقوس فيردون عليه بالنفي، عندئذ يخبرهم بما يجهلون بتلك الأبيات التي قدمناها.

وعلى الجملة فكل ما جاء في ديوان عليّ بن أبي طالب يمكن أن يرفض كما رفضنا ما تقدم.

(٣) على ألسنة أعدائهم

ووضعوا شعرا كثيرا فيه إعلاء من شأن علي وإشادة بشجاعته وإقدامه، واعتراف بحقه في الخلافة، وأجروا هذا الشعر على ألسنة أعدائهم. فمن أمثلة ما ينسب إلى غلام من بني ضبة كان يحارب في صفوف عائشة وهو:

نحـــن بـــني ضـــبة أعـــداء علـــي ... ذاك الــذي يعــرف قــدما بالوصــي
وفــارس الخيــل علــى عهــد النــبي ... مــا أنا عــن فضــل علــي بالعمــي
لكنــني أنعــي ابــن عثمــان التقــي ... إن الـــولي طالـــبٌ ثأر الـــولي

وإشادة بمزاياه وفضله وما وهبه الله من حميد الصفات وكريم الخلال التي لم يستطع هذا الفتى الذي كان يحارب ضد علي أن يتناساها، بل جاهر بها في شعره. ولو أن قائل هذا الشعر كان يؤمن بحق علي في الخلافة ويقر بفضله لما حارب ضده مع قوم كانوا يريدون إهلاكه والقضاء عليه والظفر به. ومن هنا تستطيع أن تدرك أن هذا الشعر من وضع الشيعة أنفسهم.

ولنضرب للقاريء مثلاً آخر. قيل أن عمرا تعرض لعلي في يوم من أيام صفين، فحمل عليه عليَ حملة كاد يقضي عليه، عندئذ ألقى عمرو بنفسه من على فرسه ورفع ثوبه، وشغر برجله فبدت عورته فصرف عليّ وجهه عنه، وقام معفرا بالتراب هاربا على رجليه، معتصما بصفوفه. فقال معاوية:

ألا للهِ مـــن هفـــوات عمـــروٍ ... يُعـايِبُنِي علـى تَرْكِـي بِـرَازِي(١)
فقـــدْ لاَقــى أبا حســـنٍ عليًّـــاً ... فـآب الـوائِلِيُّ مـآبَ خـازِى
فلـــو لم يُبْـــدِ عورتـــه للاقـــي ... بـــه ليثـــا يـــذلِّل كـــلَّ نَازِي
لـــه كـــفٌّ كـــأنَّ براحَتْيهـــا ... منـايَا القـومِ يخطِـفُ خطـفَ بَازِي

قيل فغضب عمرو وقال: ما أشد تعظيمك عليًّا في أمري هذا. هل هو إلا رجل لقبه ابن عمه فصرعه. أفترى السماء قاطرة لذلك دما.

قال ولكنها تعقبك جبنا. ولما شمت معاوية بعمرو قال عمرو في ذلك.

معـاويَ لا تَشْـمتْ بفـارسِ بُهْمـةٍ ... لقَـى فارسـا لا تَعْتَرِيـه الفـوارسُ
معاوي إن أبصْرتَ في الخيلِ مُقْبِلا ... أبا حسـن يَهْـوى دَهَتْـكَ الوَسَـاوسُ
وأَيْقَنْـتَ أنَّ المـوتَ حـقٌّ وأنـه ... لنفسـك إن لم تمـض في الـركضِ خـالسُ
فإنَّـك لـو لاقَيْتـه كنـتَ بُومـةً ... أُتِـيحَ لهـا صـقرٌ مـن الجـوِّ آنِـسُ
ومـاذَا بقـاءُ القـومِ بعـد اختِباطِـه ... وإنَّ أمـــرأً يلْقَـــى عليًّـــا لآيِـــسُ
دعـاك فصَـمت دونـه الأذنُ هـاربا ... بنفسـك قـد ضـاقَتْ عليـكَ الأمَلِـسُ
وتشْـمَت بي أن نالـنِي حـدُّ رمِحِـه ... وعَضْعَضِـني نابٌ مـن الحـربِ ناجِـسُ
أبى اللهُ إلا أنـــه ليـــثُ غابـــةٍ ... أبـو أَشْـبُلٍ تُهْـدَى إليـهِ العـرائِسُ

وروى أن معاوية حرص بعض الناس على لقاء عليّ ومبارزته والقضاء عليه، فقال في ذلك الوليد بن عقبة:

---

(١) روى أن عليا طلب من معاوية أن يخرج لمبارزته فرفض.

يقــولُ لنــا معاويــةُ بــن حــربٍ ... أمـــا فـــيكم لـــواتِركم طَلــــوبُ
يَشــدُّ علــي أبي حســنٍ علــيَ ... بأسمــــرَ لا تُهَجِّنُـــــه الكعـــــوبُ
ليشـــــجُرَه بأبـــــيضَ مَقْضَــــبيّ ... ونقْـــعُ الحـــربِ مطـــردُ يـــؤوبُ
فقلــتُ لــه أتلعَــلُ يا ابــنَ هنــدٍ ... كأنـــك بَيْنَنَـــا رجـــلٌ غريـــب
أتُغْرِينَـــا بِحَيَّـــــةِ بطـــــنِ وادٍ ... أُتِـــيحَ لـــه بـــه أَسَـــدٌ مَهيـــبُ
بأضْـــعَف حيلـــةٍ منـــا إذَا مَـــا ... لَقِينَـــــــاهُ ولقْيـــــــاهُ عجيـــــــبُ
ســـوى عمـــروٍ وقتْـــه خُصْـــيَنَاه ... وكـــــان لِقَلبِـــــه منـــــه وجِ؟؟؟؟
كــــانَّ القـــــومَ لمــــا عــــاينُوه ... خــلال النقْــعِ لــيس لهــم قلــوبُ
كعمــرو أيْ معاويــةَ بــن حــرب ... ومــا ظـــنّي سَـــتَلْحَقُه العُيُـــوبُ
لقــــد نادّاه في الهيجــــا علــــيٌّ ... فأسمَعَـــــه ولكـــــن لا يُجِيـــــبُ

أما بعد، فلو أن أحد شعراء الشيعة أراد الإشادة بشجاعة علي لما استطاع أن يقول أكثر من هذا، وليس من المعقول أن يقابل عمرو عليا فيكشف أولهما عورته،عندما يحس بخطر الموت، لينجو بنفسه من الهلاك المحقق. ليس معقولا أن يصدر هذا من رجل في مركز عمرو بن العاص. وأبعد من هذا أن يعيره معاوية بتلك الحادثة. وفضلا عما تقدم فإن معاوية لم يكن شاعرا.

وإنك لتجد في شرح ابن أبي الحديد[1] كثيرا من القصائد التي تنسب إلى معاوية وعمرو بن العاص وابن عباس والوليد بن عقبة. وكل هذه القصائد فيها مدح كثير للامام، وتعظيم لشأنه تعظيماً فيه مبالغة وإسراف. وهذا شيء لا ينتظر من قوم عرفوا بشدة لغضهم لعلي، والإمعان في الكيد له، والتقليل من خطره، والتهوين من أمره، والحط من شأنه.

وقد أسرف أدباء الشيعة في وضع مثل هذه القصائد حتى أنهم وضعوا

---

(1) شرح ابن أبي الحديد جـ ٦ ص ١١١.

شعرا ونسبوه إلى جبريل. روى أن الناس في غزوة أحد، لما تفرقق المسلمون عن النبي ووقف علي يذود عنه ويرد عادية المشتركين، سمعوا صائحت يصيح في السماء بهذا البيت.

لا سـيفَ إلا ذُو الفقـار ولا فـتىً إلا عَلـي

فسألوا النبي فقال ذاك جبرائيل(١).

(٤) كفر ومجون

كما أنهم وضعوا شعرا كثيرا فيه كفر وإلحاد، وفيه خلاعة ومجون ونسبوه إلى أعدائهم من خلفاء بني أمية. ومثال ذلك ما وضعوه على يزيد ابن معاوية.

ليتَ أشياخي ببدر شَهدوا جَزَعَ الخزرج من وقع الأسَلْ
لأَهلُّوا واستهلُّوا فرحا ثم قالُوا يا يزيدُ لا تُشَلْ
لعبتْ هاشمُ بالملك فلا خبّرٌ جاء ولا وَحْيٌ نَزَلْ
لستُ من خندف إنْ لم انتقمْ من بني أحمدَ ما كانَ فعلْ

فليس مما يعقل أن يصدر مثل هذا القول من رجل يحكم الناس باسم الدين، ويسيطر عليهم باسم الدين، ويخضعهم باسم الدين. نعم ليس من المعقول أن يطعن يزيد في الإسلام الذي لولاه لما كانت هناك خلافة ولما كان هناك سلطان, وإذا صدقنا أن يزيد كان فيما بينه وبين ملحدا، فلا نستطيع أن نصدق أنه يجاهر بهذا ويصرح به في مثل هذا الشعر.

ومثل آخر أسوقه للقاريء وهو قول أحد أنصار معاوية مخاطبا إياه:

أعط عمرا إن عمرا تاركٌ دينَه اليومَ لدنْيَا لم تُحَزْ
إعطه مصرا وزدْه مثَلها إنما مصرٌ لمن عَزَّ وبزْ

(١) شرح ابن أبي الحديد.

إن مصـــــرًا لعلــــي أو لَنــــا يغْلِــبُ اليــومَ عليهــت مــن عَجْــز

ففي هذا الشعر ترى أن عمرا ترك دينه وباع آخرته بدنياه، وفضل العاجلة على الآجلة، وذلك بنصره معاوية في حربه ضد علي. وليس مما يصدقه العقل أن يجرؤ أحد أتباع معاوية على مخاطبة سيدة بمثل هذا القول.

ومثال آخر وهو مما ينسب إلى عمرو بن العاص.

لمـا تعرَّضــتِ الــدُّنيا عَرَضْــتُ لهــا بحـرصِ نفسِـي وفي الأَطبـاع أذْهَـانُ
نفـسٌ تعـفُّ وأخْـرَى الحـرصُ يَغْلِبُهـا والمـرءُ يأكــلُ تبنــا وهــو غَــرْثانُ
أمــا علــيٌّ فــدينٌ لــيس يشــركه دنْيَــا وذاك لــه دُنْيــا وسُــلطان
فـاخترتُ مـن طمَعِي دُنيا على بَصَـر ومَـا معِـي بالـذي اختـارُ برهـانُ
إني لأعــرف مــا فيهــا وأبصــرهُ وفيَّ أيضــا لمــا أهــواهُ أَلــوانُ
لكـنَّ نفسِـي تُحِـبُّ العيشَ في شـرفٍ ولـيسَ يَرضَـى بـذلِّ العيش إنسـانُ

وليس أبعد إلى الذهن من تصديق صدور مثل هذا القول من شخص كعمرو عرف بميله الشديد إلى معاوية وانصرافه عن عليّ. وهو لم يجد في ذلك مفرا ولا خروجا عن الدين، ولم ير أنه اختار الدنيا وأعرض عن الآخرة، بل كان يعتقد أن الخلافة سلطة زمنية يتسلم مقاليدها من يصلح لها من الناس. ومعاوية في نظره كان صالحا لها، فإن نصره انتظر منه أحسن الجزاء، وأعظم العطاء.

ومن(١) أمثلة هذا الشعر ما روي عن الوليد بن يزيد من أنه دعا ذات ليلة بمصحف، فلما فتحه وافق ورقة فيها «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد. من وراثه جهنم ويسقى من ماء صديد» فقال: أسجعا سجعا!! علقوه، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه، ثم قال:

---

(١) الأغاني جـ ٧ ص ٤٩.

أتوعـــدُ كـــلَّ جبـــارٍ عنيـــد | فهـــا أنا ذاكَ جبـــارٌ عنيـــدُ
إذا لاقيـــتَ رَّبـــك يـــوم حشـــرٍ | فقـــلْ لله مَـــزقني الوليـــدُ

وليس من المعقول أن يصدر هذا من الوليد بن يزيد مع اعترافنا بأنه كان يميل إلى اللهو والمجنون، لأنه هو القائل:

أشـــهدُ أن الـــدينَ ديـــن أحمـــدِ | فلـــيسَ مـــن خالفَـــه بمهتـــدِي
وأنـــــهُ رسُـــــولُ ربِّ العـــــرشِ | القـــادرِ الفـــردِ الشـــديدِ الـــبطش
أرســـله فـــس خلقِـــه نـــذيرًا | وبالكتـــابِ واعطـــا بشـــيرًا
ليظهـــــرَ الله بـــــذاك الـــــدينَا | وقـــد جُعِلْنَـــا قبـــلُ مُشْـــركِينا

فآثار التكلف ظاهرة على تلك القصة بوضوح وجلاء، فواضعها جعل الوليد يطلب مصحفا لغير ما سبب، ثم يفتحه، وهنا يظهر التصنع الذي يجعل نظر الوليد أول ما يقع على آية «واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد...» ثم تدرج صانع هذه الأسطورة، فجعل الوليد يقول: أسجعا سجعا علقوه، ثم جعله يأخذ النبل ويرميه حتى يمزقه، ثم أنطقه بهذا الشعر الذي سقناه. ومهما يكن دين الوليد، فمن المستبعد أن يقول «ها أنا ذاك جبار عنيد».

ومثل آخر نسوقة للقاريء وهو ما حكي عن الوليد من أنه سمع صياحا فسأل عنه فقيل له: هذا من دار هشام يبكيه بناته فقال:

إني سمعـــــــتُ بليـــــــلٍ | وراءَ المصـــــــلى برَنَّـــــــهْ
إذا بنـــــــاتُ هشـــــــامٍ | ينـــــــدبْن والدَهُنَّـــــــهْ
يَنْـــدُبُن قرمـــا خَلـــيلا | قـــد كـــان يَعْصُـــدُهُنَّهْ
أنا المخنَّـــــــثُ حقًّـــــــا | إن لم أنِيكَنَّهُنَّـــــــــــــهُ

فظاهر أن البيت الأخير لا يمكن أن يصدر من الوليد. فبنات هشام هن بنات عمه وهو أحق الناس بالمحافظة على أعراضهن.

وقد نسبوا له شعرا ثبت أنه لغيره من شعراء المجون. ومثال ذلك ما رواه صاحب الأغاني «خرج الوليد بن يزيد من مقصورة إلى مقصورة فإذا هو ببنت له معها حاضنتها فوثب عليها فاقترعها، فقالت له: إنها المجوسية، قال: اسكتي ثم قال:

مـــن راقـــبَ النـــاسَ مـــاتَ غَمًّـــا وفـــــازَ باللَّـــــــذةِ الجســـــورُ

قال أبو الفرج[1]: «وأحسب أنا أن هذا الخبر باطل، لأن هذا الشعر لسلم الخاسر، ولم يدرك زمن الوليد».

---

(1) الأغاني ج٧ ص ٦١.

الفصل الثاني

الشعر عند الشيعة

لقد أغنت حركة التشيع الشعر العربي إلى حد كبير. وكان الشعر الناتج عنها شعرا غزيرا قويا. وسبب ذلك أن الموقف الذي وقفه الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ويهيجها ويثيرها. والعاطفة أكبر دعامة من دعائم الشعر. وكان للشيعة عواطف بارزة قوية يرجع إليها الفضل في كثرة ما وصلنا عنهم من شعره. العاطفة الأولى عاطفة الغضب، فإنهم اعتقدوا أنهم سلبوا حقهم وغضبوه. واعتدى عليهم ظلما فحنقوا وغضبوا، ودفعهم الغضب إلى أن يقولوا شعرا فياضا بالحنق والغيظ على هؤلاء المغتصبين.

أما العاطفة الثانية فهي عاطفة الحزن على ما حل بهم من نكبات جسام، وما وقع عليهم من مصائب عظام طوال حكم الأمويين والعباسيين.

والعاطفة الثالثة عاطفة الحب الشديد لآل البيت، هذا الحب الذي يزداد بمرور الأيام ويقوى كلما اشتد اضطهاد الأمويين والعباسيين لأئمتهم.

وإذا نظرنا إلى الشعر عند الشيعة وجدنا أغراضه تنحصر في الأمور الآتية:

(١) المدح

مدح شعراء الشيعة أئمتهم بقصائد رائعة، أظهروا فيها حبهم وعطفهم لآل البيت، وإخلاصهم لهم وولاءهم. وقد كان هذا المدح في أول الأمر ساذجا لا غلو فيه ولا إسراف. ومثال ذلك ما ينسب إلى حجر بن عدي الكندي يمدح عليا يوم الجمل:

يا ربَّنَـــا ســـــلِّمْ لنَـــا عِليـــا ســـــلِّمْ لنـــا المبـــاركَ المُضِـــيَّا
المـــــؤمِنَ الموحِّـــــدّ التقِيَّـــــا لا خَطـــــلَ الـــــرأيِ ولا غَـــــوِيَّا
بـــــل هـــــادياً مُوَفَّقـــا مَهْـــديَّا واحفَظـــهُ لابِّي زاحفـــظ النبيَّـــا
فيـــه فقـــدْ كـــانَ لـــه وَلِيَّـــا ثم ارْتَضـــــاهُ بعْـــــدَه وصِـــــيَّا

وربما كان البيتان الأخيران قد أضافهما أحد الشيعة ممن عاشوا بعد عصر عليّ.

ومثل آخر من المدح وهو ما ينسب إلى أحد شعراء الشيعة يذكر نفور قومه إلى عليّ:

بُـــــوَقَّرُه في فضْـــــله ونُجِلُّـــــه وفي اللهِ مـــا نرجـــوُ ومـــا نتَوُقـــعُ
دَلفْنَـا بجمـع آثـروا الحـق والهُـدى إلى ذِي تُقًـــى في نَصِـــره نتسَـــرَّعُ
نكـافِحُ عنـه والسـيوفُ شَـهيرةٌ تُصـافِحُ أعْنَـاق الرَّجَـالِ فَتقْطَـعُ

***

ثم أخذ الشعراء يغلون في المديح شيئاً فشيئاً. ومثال ذلك ما ينسب للفرزدق في مدح[1] علي بن الحسين. وروى أن هشاما حج قبل أن يلي الخلافة، فاجتهد أن يستلم الحجر فلم يمكنه، وجاء علي بن الحسين فوقف له الناس وتنحوا حتى استلمه فقال أهل الشام لهشام: من هذا يا أمير؟ فقال: لا أعرفه. فقال الفرزدق: لكني أعرفه، هذا علي بن الحسين وأنشأ يقول:

هـذا الـذي تعـرفُ البطحـاء وطأَتَـه والبيـــتُ يعرفَـــه والحـــلُّ والحـــرمُ
هـــذا ابـــنُ خـــيرِ عبـــادِ اللهِ كِّلهِـــمُ هـذا التَّقُـي النّقُّـي الطـاهرُ العلـمُ
يكـــاد يمســـكه عرفـــانَ راحتـــهِ ركــنُ الحطِـيم إذا مـا جـاءَ تَسـتلِمُ

(١) الأغاني جـ ١٤/ ٧٦.

إنّهَا رأَتــه قــريشٌ قــالَ قائلهــا — إلى مكــارمِ هــذا يَنْتهــي الكــرمُ

إنْ عـدَّ أَهْـلُ القِـرَى كـانوا ذَوي عّـدّدِ — أو قِيلَ مَن خيرُ أهلِ الأرضِ قيل هُمُ

فلــيْسَ قولُــكَ مــن هــذا بضَــائِرِهِ — العـربُ تعـرِفُ مـن أنكـرتَ والعَجَـمُ

هـذا ابـنُ فاطمـةٍ إن كنـتَ تتجهلـه — بجــده أنبيــاءُ اللهِ قــد ختِمُــوا

في كفِّــه خــيرُ رَانٌ ريحــهُ عَبــقٌ — مــن كــفِّ أرْوعَ في عِرنِينِــه شَمَــمُ

يغْضِــى حيــاءً ويُغْضَــى مــن مَهابَتــهِ — فــلاَ يكَلَّــمُ إلا حــيَن ينْتَسِــمُ

وهي خمسة وعشرون بيتا. وقد شاع بين الناس أنها للفرزوق مع أن من المشكوك فيه أن الفرزودق يرتجل كل هذا في حضرة هشام ولا يجد من يقوم في وجهه من الجالسين. وقد ثبتت أن الفرزدق قال أربعة أبيات، ثم أخذ أدباء الشيعة يزيدون عليها ما ليس منها حتى بلغت خمسة وعشرين بيتاً.

ذكر صاحب(١) الأغاني أن هذين البيتين.

في كَفِّــهِ خيــزرانٌ ريحــهُ عَبــقٌ — مــن كــفِّ أروعَ في عرنِينِــه شَمــم

يُغْضِــى حيــاءً ويُغْضَــى مـن مَهابتـهِ — فــلا تُكَلَّــمُ إلا حــين تَبْتَســمُ

قالهما عمرو بن عبيد الشهير بالحزين في مدح عبد الله بن عبد الملك ابن مروان، وكان عبد الله من فتيان بني أمية وظرفائهم، وكان حسن الوجه حسن المذهب.

قال أبو الفرج(٢) «والناس يروون هذين البيتين للفرزدق في أبياته التي يمدح بها علي بن الحسين بن أبي طالب عليه السلام التي أولها.

هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطأتـه — والبيــت يعرفــه والحــل والحــرم

(١) الأغاني جـ ١٤/ ٧٤.

(٢) الأغاني جـ ١٤ ص٧٥.

وهو غلط ممن رواه، وليس هذان البيتان مما يمدح به مثل علي ابن الحسين عليهما السلام وله من الفضل المتعالم ما ليس لأحد».

وقال في موضع آخر «من الناس من ينسب هذه الأبيات لداود بن سلم في قثم بن العباس ومنهم من يرويها لخالد بن يزيد مولى قثم فيه». ثم أورد صاحب الأغاني الأبيات الآتية:

كم صارخٍ بك من راجٍ وراجيةٍ ... يرجوكَ ياقثّمُ الخيرات ياقثَمُ
أي العمائرِ ليستْ في رِقَابِهِم ... لأَوَّلِيَّةِ هَذَا أَوّلُهُ نَعَمُ
في كفِّهِ خَيْزُرٌ رَانُ ريحُهُ عَبِقٌ ... من كفِّ أروعَ في عرنينِهِ شَمَمُ
يُغضى حياءً ويُغْضَى من مهابته ... فلا يكلَّم إلا حين يَبْتَسِمُ

قال أبو الفرج «ومما ذكر لنا الصولي عن العلائي عن مهدي بن سابق أن داود بن سلم قال هذه الأبيات الأربعة سوى البيت الأول في شعره في علي بن الحسين عليه السلام. وذكر الرياشي عن الأصمعي أن رجلا من العرب يقال له داود وقف لقثم فناداه وقال:

يكادُ يمسِكه عرفان راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
كم صاروخ بك من راجٍ وراجيةٍ ... في الناس يا قثم الخيرات ياقثم

فأمر له بجائزة سنية، والصحيح أنها لمالك الحزين في عبد الله بن عبد الملك. وقد غلط ابن عائشة في إدخاله البيتين في تلك الأبيات. وأبيات الحزين مؤتلفه[1] منتظمة المعاني متشابهة تنبيء عن نفسها».

***

ومن أمثلة المديح قول الكميت:

---

(١) الأغاني ج ١٤/٧٥.

بـل هــو الــذي أَجُــن وأُبــدي ... لـــبي هاشــــمٍ فــــروعِ[١] الأنَامِ
للقَــريبينَ مــن نــدًى والبعيديــ ... نَ مــن الجــور في عُــرَى[٢] الأَحكــام
والمصـيبينَ باب مـا أخطـأَ النـاسُ ... ومرســـــى قواعــــدِ الإســـلام
والحمـاةُ الكفـاةُ في الحـرب إن لفــ ... ف ضِـــرامٌ وقـــودُه[٣] بضــــرام
والغيـوثُ الـذين إن أمحـل النـاسُ ... فمــــأْوَى حواضِــــن[٤] الأَيتـــام

***

ولما تطورت معتقدات الشيعة وظهرت آراؤهم في الأئمة والقول بعصمتهم، وأن الإمام يشفع لأمته يوم القيامة، جاء ذلك واضحاً جلياً في شعر الشعراء الذين بلغوا في الغلو درجة بعيدة. ومثال ذلك قول ابن هانئ الأندلسي يمدح المعز لدين الله الفاطمي:

ما شئتَ لا ما شاءَت الأقدارُ ... فـاحكم فأنـتَ الواحـدُ القهـارُ
وكأنمـا أنـتَ النـبيُّ محمــدٌ ... وكأنمـــا أنصــارُك الأَنصـــارُ
أنـتَ الـذي كانـت تُبشـرُنا بـه ... في كُتبِهــا الأحبــارُ والأَخيــارُ
هــذا إمــامُ المتقــيَ ومــن بــهِ ... قـــد دُوِّخَ الطُّغيـــانُ والكفـــارُ
هـذا الـذي تُرْجـي النجاة بحبِّهِ ... وبــــه يُحَـــطُّ الإصـــرُ والأَوْزَارُ
هـذا الـذي تُجْدِي شَـفَاعَتُهُ غـدا ... حَـــقّ وتَخْمُــدُ انْ تَــراهُ النَّــارُ
من آل أحمد كلُّ فخرٍ لم يكن ... ينمــي إلــيهم لــيس فيــه فَخـارُ
كالبدرِ تحتَ غمامةٍ من قسطل ... ضــحيان لا يُخْفيــه عنــك سِــرارُ

---

(١) الهوى: الميل. أجن: أضمر. أبدي: أظهر. وفروع الأنام. أرفعهم وأسماهم.

(٢) الندى. الكرم. والعرى جمع عروة. والأحكام جمع حكم.

(٣) الحماة جمع حامي وهو الذاب عن الحرم.

(٤) الغيوث: جمع غيث وهو المطر والخصب. وأمحل الناس أجدبوا. والمحل: الجدب والقحط_ حواض الأيتام يريد بهن أمهات الأيتام.

وقد شاع مثل هذا المديح بين شعراء المسلمين. أنظر إلى المتنبي حين يقول:

لـو كـانَ علمـك بالإلـه مُقَسَّـما | في النـاس مـا بعـثَ الإلـهُ رسـولا
أو كان لفظك فيهمُ ما أنزل الـ | ــتوراة والفرقــان والإنجــيلا

وانظر إليه حين يقول:

لـو كـان ذو القـرنين أعْمَـلَ رأيَـهُ | لمـا أتـى الظّلمَـات صِـرْنَ شُموسـا
أوْ كان صادَف رأس عازر سيفه | في يــوم معركــةٍ لأَعيــا عيســى
أوْ كــان لجُّ البحــر مثـل يمينــه | مـا انشـقَّ حـتى جـاز فيـه موسـى
يا مـن نَلـوذُ مـن الَّزمـان بظلّـِهِ | أبــداً ونطــرُدُ باسمــه إبليســا

***

وقد كثر مدح الشعراء لآل البيت كثرة مدهشة واشترك في هذا المديح شعراء شيعيون وسنيون. وكان مديح آل البيت سببا في ظهور المدائح النبوية، والاستغاثة بآل رسول الله. وقد شغل هذا وذاك مكانا كبيرا في عالم الشعر كما أن هذا المديح في آل علي دقع كثيرا من الشعراء إلى نظم القصائد في مدح أبي بكر وعمر وعثمان فظهر ما نراه من القصائد البكرية والعمرية والعثمانية.

(٢) الرثاء

كانت مجزرة كربلاء التي قتب فيها الحسين وما حل بالعلويين بعدها دافعا قويا للشعراء أنطقهم بكثير من القصائد التي تسيل العبرات، وتذيب القلوب، وتفتت الأكباد. ولا غرابة في ذلك فهي صدى لتلك الدماء التي سفكت بغير حساب، والأشلاء التي تناثرت وتركت على الأرض طعاما للطير، والجثث التي أحرقت وذريت في الهواء، والأجسام التي صلبت وبقيت مصلوبة أياما تنبعث

منها الروائح الكريهة، القبور التي هدمت وحرث مكانها وزرع. وقد كثر الشعر في رثاء آل البيت كثرة هائلة، وكله صادر من أعماق النفوس، منبعث من قرارة الأفئدة. فكان للأدب العربي من ذلك ثروة لا تقدر. ومن أمثلة ذلك ما ينسب لزوجة الحسين.

إنَّ الـذي كـان نـورا يُسْتَضَـاءُ بـه ... بكـــرْبلاءَ قتيـــلٌ غــيرُ مـــدفونِ
سِـبطَ النـبيِّ جـزَاكَ الله صـالحةً ... عنَّـا وَجُنِّبْـتَ خُسْـرّانَ المـوازِينِ
قـد كنـتَ لي جبلا صعبا أَلـوذُ بِـه ... وكنـتَ تَصْـحَبُنَا بالـرَّحْمِ والـدين
مَـنْ لليتَـامَى ومَـنْ للسـائِلينَ ومَـنْ ... يُغْــنِي ويأْوِى إليْــهِ كــلُّ مِســكِينِ
واللهِ لا أَبْتَغِــي صــهرا بِصــهركُم ... حَـتَّى أُغَيَّـبَ بـين الرَّمْـلِ والطـينِ

وقول السيد الحميري:

أُمْـــرُرْ علـــى جَـــدثِ الحســـ ... ـــينِ فَقُـــلْ لأَعْظُمِـــهِ الزَّكِيَّـــهْ
آ أعظمـــا لا زلـــتِ مـــن ... وطفـــاءَ ســـاكنةٍ رَوِيَّـــهْ
وإذا مَــــــررتَ بقـــــبرِهِ ... فأطـــلْ بـــه وقـــفَ المطيَّـــهْ
وأبـــكِ المطهـــرَ للمطـــ ... ـــهر والمطهـــرةِ النَّقِيَّـــهْ
كبُكـــاءِ مُعْوِلَـــةٍ أَتَـــتْ ... يَومـــاً لواحـــدِها المنِيَّـــهْ

ومن جيد ما قيل في رثاء آل البيت قصيدة دعبل الخزاعي التي يقول فيها:

مـدارسُ(١) آياتْ خلـتْ مـن تِـلاوةٍ ... ومنـــزِلُ وحـــيٍ مُقْفِـــرُ العَرصَـــاتِ
لآل رسـولِ الله بالخَيْـفِ مـن مِـنىً ... وبالـــركْنِ والتَّعْرِيـــفِ والجَمَـــراتِ
ديارُ علـــيّ والحســـينِ وجعفـــرٍ ... وحمـزَةَ والسَّـجَادِ ذي(٢) الثفنـات

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٠٣/١١.

(٢) السجاد هو علي بن عبد الله بن العباس سمي بهذا لكثرة السجود. والثفنات جمع ثفنة وهي ركبة الإنسان يريد أن ركبتيه تأثرتا من كثرة السجود.

دیارٌ عفاها كلُّ جَونٍ مُبَاكِرٍ ولم تَعْفُ للأَيَّامِ والسنَواتِ
قِفا نسألِ الدارَ التي خَفَّ أهلها متى عهدُها بالصومِ والصلَوَاتِ
وأينَ الأُلَى شَطَّتْ بِهِمُ غرْبةُ النَّوى أَفانِينَ في الآفاقِ مُفْتَرِقَاتِ

وهي طويلة، وسنورد بقيتها حينما نتكلم عن أشهر شعراء الشيعة. وقد روى أن كثيرا من شعراء الشيعة وأدبائها كانوا يجتمعون ويبكون وينوحون بالقصاد التي ينظمونها في رثاء آل البيت. ومما بُكِيَ به قول أحد الشعراء.

بني أحمدٍ قلبي لكم يَتَقَطَّعُ بمثل مُصابِي فيكُمُ لَيس يُسْمَعُ
عَجِبْتُ لكم تَتْنَونَ قتلاً بِسَيْفِكم ويَسطو عليكم مَن لكُم كَانَ يَخْضَعُ
كان رسولَ اللهِ أَوْصَى بِقَتْلِكمْ وأَجسامِكم في كلِّ أرْضٍ تُوَزَّع

(٣) الهجاء

أكثر شعراء الشيعة من هجاء أعدائهم أمويين وعباسيين، كما هجوا أبا بكر وعمر وعثمان هجاء مرا، وقالوا في ذلك كثيرا. ومن أشهر من عرَّض بهؤلاء في شعره السيد الحميري، وهو شاعر عاش في أواخر الدولة اللأموية وأوائل الدولة العباسية. وكان شيعيا غاليا، وقد ذكره صاحب الأغاني [١] بقوله «فكان يفرط في سب أصحاب رسول الله ﷺ وزواجه، ويستعمل شعره في قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره، وهجره الناس تخوفا وتوقيا».

وكان مهيار الديلي الذي عاش في القرن الرابع الهجري كثير الطعن في هؤلاء الصحابة. ولكن شعره لم يهجره الناس كما هجروا شعر السيد الحِمْيرَى، فوصل إلينا كل ما قاله في عذا الباب. ومن أمثلة هذا الهجاء. قول أحد شعراء

(١) الأغاني جـ ٧/٢٣٠.

الشيعة:

قد كنتُ أطمَعُ أن أموتَ ولا أرى   فوق المنابرِ من أمَيَّةَ خاطِبا
فاللهُ أخَّرَ مُدَّتي فتطاوَلتْ   حتَّى رأيتُ من الزَّمانِ عَجَائِبَا
في كلِّ يومٍ للزمانِ خَطيبُهم   بَينَ الجميع لآلِ أحمد عَائِبا

وقول مهيار:

حَمَلُوها يوم السقيفةِ أَوْزا   را تَخِفَّ الجبال وهِيَ ثِقَالُ
ثم جَاءُوا من بعدِها يَسْتَقِلُو   نَ وهيهاتَ عثرةٌ لاَ تُقَالُ
يا لها سوءةً إذا أحمدَ قَا   م غدا بينهم فقال وقالوا
ربعُ همِّي عليهمُ طَلَلٌ با   قٍ وَتَبْلَى الهمومُ والأطلالُ

ومن قوله أيضا:

أأللهَ يا قومُ، يَقْضِي النبيُّ   مطاعا فيُعْطي وما غُسِّلا
ويوُصي فنحرصُ دَعْوى عليـ   ـه في تركه دينَه مُهْمَلاَ
وَيجْتَمِعوُن على رَغْمِهم   ويُنْبِيك سعدٌ بما أَشْكَلا
فيعقب إجماعهم أن يبيـ   ـت مفضولهم يقدُم الأفضلا
وأَن يُنزعَ الأمرُ   لأَن عليًّا له أُهلاَ
وساروُا يَحُطون في آله   بِظُلْمِهِمُ كلْكلاً كلْكلاَ

ومنها:

فيوم السَّقِيفةِ يا بن النَّبـ   ـيِّ طرَّقَ يومَك في كرْبَلا
وغصْبُ أبيكَ على حَقِّه   وأمِّك حَسَّنَ أن تُقتلا

ولما أكثر شعراء الشيعة من الطعن على الخلفاء الأول قام فريق من شعراء السنيين يدافعون عن أبي بكر وعمر وعثمان ويذودون عنهم، فكان من هذا وذاك شعر كثيرظز قال بديع الزمان الهمدذاني من قصيدة طويلة.

إمـــامُ مـــن أُجْمِـــع في السَّـــقِيفَهْ   قَطْعًـــا عليـــه أنـــه الخلِيفَـــهْ
ناهِيـــكَ مـــن آثارِه الشـــريفَهْ   في ردِّه كيـــدَ بـــني حنِيفَـــهْ
ســـلِ الجبـــالَ الشُّـــمَ والبحـــارَا   وســـائِل المنـــبرَ والمنَـــارَا
واســـتعلِم الآفـــاقَ والأقْطـــارَا   مـــن أظهـــر الـــدينَ بهـــا شِـــعارَا
ثم ســـلِ الفـــرسَ وبيـــتَ النـــارِ   مـــن الـــذي فَـــلَّ شَـــبا الكفـــارِ
هـــل هـــذه البـــيضُ مـــن الآثارِ   إلا لثَـــاني المُصـــطَفى في الغـــارِ

وهي طويلة فليرجع إليها القاريء إن شاء في الجزء الثاني من معجم الأدباء طبع القاهرة[١].

(٤) الدفاع عن حق علي

كان الدفاع عن حق علّى وآل بيته في الخلافة من أهم الأمور التي شغلت شعراء الشيعة، فتناولوا هذا الموضوع وقالوا فيه كثيرا. دافعوا عن هذا الحق دفاعا مذكورا، ولم يتركوا حجة ولا دليلا يثبت حقه فيها إلا أتوا به مفصلا مشروحا، ولم يدعوا برهانا ولا بينة تؤيد رأيهم، وتدعم مذهبهم إلا ذكروها ونوهوا بها. ويعتبر الكميت أول شاعر شيعي لجأ في الجأ في الدفاع عن حق علي إلى الدليل والبرهان، وقد قال عنه الجاحظ «إنه من أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج» ومن قوله:

وقـــالُوا ورِثْنَاهـــا أَبانا وأمنـــا   ومـــا وَرَّثَـــتْهُمُ ذاك أُمٌّ ولا أَبُ

---

(١) ص ١٩٧ جـ ٥٢.

يـروْن لهـم حـقَّ علـى النـاسِ واجبًـا ... سَـفاها وحـقُّ الهـاشميين أوجَـبُ
ولكـن مواريـثُ ابـن آمنـةَ الـذي ... بـه دانَ شـرقيٌّ لكـم ومُغَـرِّبُ

ومنها:

يقولـون لم يُـورَث ولـولا تُراثـه ... لقـد شـركتْ فيـه بِكيـلٌ وأَرْحَـبُ
وعـكٌّ ولخـمَ والسَّـكونُ وحمـيرٌ ... وكنـدةُ والحيَّـان بكـرٌ وتغلـبُ
ولا نتشـلت[1] عضـوين منهـا يُحَـايُرٌ ... وكـان لعبـدِ القيس عضـوٌ(٤) مـؤربُ
ولانتقلـتْ مـن خنـدفٍ في سـواهُم ... ولا قْتَـدَحت قـيسٌ بهـا ثم أَثقَبـوا
ولا كانـت الأنصـارُ فيهـا أدلـةً ... ولا غُيّبـا عنهـا إذا النـاس غَيَّـبُ
هـمُ شـهدوا بـدرا وخيـبرَ بعـدها ... ويـومَ حُنَـيْنٍ والـدماءُ تَصَـبّبُ
وهـم رائموهـا[2] غـير ظئـرٍ[3] وأشـبلوا ... عليهـا بأطـراف القنـا وتَحَـدَّبوا
فـإنْ هـي لم تصـلُح لقـومٍ سـواهُمُ ... فـإنَّ ذّوي القُـرْبَى أَحَـقُّ وأقـربُ
فيالـكَ أمـرا اشِـتَّتْ وجوهُـه ... ودارا تـرى أَسـابَهَا تَتَقَضَّـبُ
تبـدلَتِ الأَشـرارُ بعـد خيارِهـا ... وجُـدَّ بهـا مـن أمـةٍ وهـي تَلْعَـبُ

فأنت ترى أن الكميت قد ألف حجة قوية فهو يقول: لو لم يورث النبي لكانت الخلافة شائعة في قبائل العرب، ولما كان هناك معنى للقول بأن الخلافة في قريش. فإن قلتم بأن الخلافة في قريش ودفعتم الأنصار عنها بهذه الحجة، فلا معنى لتقديم قريش إلا لقرابتها من الرسول، وإذا كانت قرابتها هذه هي الحجة التي تستند إليها فالأقرب أولى. فبنو هاشم أولى من بني أمية، وبنو عليّ أولى بني هاشم. وهذه الحجة التي أتى بها الكميت ليست جديدة، ولا هي من

---

(١) أخذت نصيبين.

(٢) عضو مؤرب نصيب تام.

(٣) قبلوا دعوة الرسول.

(٤) الظئر التي تعطف على غير ولدها.

اختراعه، بل مر بنا ذكرها حينما رأينا عليا يجادل أبا بكر وعمر، ويقول لهما: أنا أحتج عليكما بمثل ما احتججتم على الأنصار. ولكن الكميت أول من ضاع هذه الحجج في الشعراء وأتى بها في القصيدة.

***

وقد ترتب على مثل هذا الشعر ظهور نوع من النقائض بين شعراء العلويين والعباسيين، ترى فيها الحجة تدفع الحجة، والبرهان يبطل البرهان. واجتهد كل فريق في الاستناد إلى القرآني والحديث والسنة والإجماع لتأييد وجهة نظره. ومثال ذلك قول أحد شعراء العباسيين مخاطبا الرشيد.

يا ابن الأئمةِ من بعد النبي ويا ابنَ الأوصياءِ أقرب الناسُ أو دفعوُا

لولا عَدِيٌّ [1] وتيمٌ[2] لم تكن وصلت ... إلى أمـــــي تَمْريهـــــا وتَرْتضـــــع
ومـــــا لآلِ علـــــيّ في إمـــــارتكم ... ومـــا لهـــم أبـــدا في إرثكُـــمْ طمـــعُ
يا أيهــا النــاسُ لا تعــزُبْ حلومكمُــو ... ولا تُضِــــفْكم إلى أكنافِهـــا البِـــدَعُ
العَــمُّ أَوْلى مــن ابــن العــم فاســتَمِعوا ... قــولَ النَّصــيحةِ إنَّ الحــقَّ مُسْــتمَعُ

وقول شاعر آخر:

ألا لله دّرُّ بـــــــــــني علـــــــــــيّ ... ودَرٌّ مـــــــن مَقـــــــالتهم كثـــــــيرُ
يســـــــــمون النـــــــــيَّ أبا ويأبى ... مــن الأحــزاب ســطرٌ بــل ســطورُ

يشير الشاعر هنا إلى آية الأحزاب «ما كان مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله». وكان من أكبر دعاة العباسيين في الشعر مروان بن أبي حفصة. لقد مدح المهدي والرشيد، ونال جوائزهما العظيمة، وله قصيدة

---

(1) قبيلة منها عمر بن الخطاب.

(2) قبيلة منها أبو بكر الصديق.

مشهورة مدح بها المهدي عندما عقد البيعة لابنه الهادي:

يا ابـــن الـــذي ورثَ النبيَّـــي مُحَمَّدا دونَ الأقـارب مـن بـني الأعمـامِ
الـوحيُ بـين نـبي البنـاتِ وبيـنكم قَطع الخصامَ فلاتَ حينَ خصامِ
مـا للنسـاءِ مـع الرجـالِ فريضـةٌ نزَلـتْ بـذلكَ سـورةُ الأَنْعَـامِ
حلُّـوا الطريـقَ لمعشـر[1] عـاداتُهم حَطـمُ المناكِـب كـلَّ يـومِ زِحـامِ
إرضَـوْا بمـا قسـم الإلـهُ لكـم بـهِ ودَعُـوا وراثـةَ كُـلِّ أصـيدَ حـامِ
أَنَّى يكـونُ ولـيس ذاكَ بكـائنٍ لبـني البنـاتِ وراثـةُ الأعمـامِ
ألغـى سـهامَهم الكتـابُ فَحـاوَلوا أن يشْـرعوا فيهـا بغـير[2] سِـهامِ
ظفِـرَتْ بنـو سـاقِي الحجِيج بحقِّهـم وغُـررْتمُ بتـوّهُّم[3] الأَحْـلام
عقِـدتْ لموسـى بالرَّصـافةِ بيعـة شَـدَّ الإلـهُ بهـا عُـرَى[4] الإسْـلامِ
موسـى الـذي عرفـتْ قـريشٌ فضلَه ولهـا فضِـيلتها علـى الأَقْـوَامِ

قيل إن أشد بيت كان على الشيعة قوله:

أَنى يكـونُ- ولـيس ذاك بكـائن- لبـني البنـاتِ وراثـةُ الأعمـامِ[5]

وقد غاظهم هذا البيت حتى لعنوه من أجله، وردوا عليه بقولهم:

لِمَ لا يكـونُ وإنَّ ذاك لكـائنُ لبـني البنـات وراثـةُ الأعمـامِ
للبنْـتِ نصـفٌ وللـتراثِ وإنَّمـا والعَـمُّ مـتروك بغـير سـهامِ
مـا للطليـقِ وللـتراثِ وإنمَـا صلى الطليقُ مخافةَ[6] الصّمْصام

---

(١) يريد بالمعشر العباسيين. وحطم المناكب يوم الزحام كناية عن غلبهم لخصومهم يوم التنافس في المجد.

(٢) أي أن ينالوها دون أن يكون لهم نصيب مفروض فيها.

(٣) ساقي الحجيج هو العباس بن عبد المطلب كان يسقي الحجاج بمكة في الجاهلية.

(٤) موسى الهادي ابن الخليفة المهدي.

(٥) وراثة الأعمام: يريد وراضة كوارثة الأعمام.

(٦) الطليق هو العباس أسر مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه.

قال أبو الفرج «قال صالح بن عطية الأضجم وهو شيعي، لما قال مروان:»

أنى يكــونُ ولــيسَ ذاك بكــائنٍ لبــين البنـــاتِ وراثـــةُ الأَعمــامِ

لزمته وعاهدت الله أن أغتاله فأقتله أي وقت أمكني ذلك، وما زلت أُلاطفه وأبره، وأكتب أَشعاره حتى خصصت به فأنس بي جدا، وعرفت ذلك بنو حفصة جميعا فأنسوا بي، ولم أزل أطلب غِرةً حتى مرض من حمى أصابته، فلم أزل أظهر له الجزع عليه حتى خلا لي البيت يوما فوثبا عليه فأخذت بحلقه فما فارقته حتى مات».

ولقد كان مروان من أحب الشعراء إلى الرشيد لأنه كان يصل مدح الرشيد بالتعريض بالشيعة والطعن فيهم. وقد اضطر الشعراء الآخرون إلى مجاراة مروان في طريقته حتى يظفروا بمثل ما كان يظفر به من العطايا والهبات.

(٥) ذكر مناقب آل البيت

أكثر شعراء الشيعة من التغني بمنقاقب علي وآل بيته في شعرهم. فكانوا كلما سمعوا منقبة قالوا فيها شعرا ولو كانت هذه المنقبة مما لا يقبله العقل. وتعتبر قصائدهم التي نظموها في هذا الموضوع من الشعر القصصي؛ لأنك تجد الشاعر يسرد لك عجيبة من عجائب علي، أو عادة من خوارق عاداته، أو أمرا غريبا وقع له من شأنه أن يرفع من مقام علي أمام الناس ويجعله سيد الأوصياء بغير شك ولا ريب. وقد كان السيد الحميري من أكثر شعراء الشيعة ذكرا لمناقب علي. قال صاحب الأغاني[١]«كان السيد الحميري يأتي الأعمش– وهو عالم كوفي ثقة في الأخبار– فيكتب عنه فضائل علي ﷺ، ويخرج من عنده

(١) و(٢) الأغاني جـ ٧.

ويقول في تلك المعاني شعرا».

ثم قال «فخرج[1] ذات يوم من عند بعض أمراء الكوفة، وقد حمله على فرس، وخلع عليه، فوقف بالكنَاسة– محل بالكوفة– ثم قال: يا معشر الكوفيين، من جاءني منكم بفضيلة لعلي بن أبي طالب لم أقل فيها شعرا أعطيته فرسي هذا وما علي. فجعلوا يحدثونه وهو ينشدهم».

من ذلك أنه سمع رجلا يروي عن النبي أنه قال لعلي لن أبي طالب: إنه سيولد لك بعدي ولد، وقد نحلته اسمي وكنيتي فقال في ذلك قصيدة طويلة نذكر منها.

ألم يبلُغْـــكَ والأنبـــاءُ تَنمِـــي	مقـــــالُ مُحَمّد فيمـــــا يُـــــوَدّي
إلى ذِي علمِــه الهــادِي علــيّ	وخولــةُ خــادمٌ في البيــتِ تــردي
ألم تــرَ أَن خولــةَ ســوف تَأتي	بــواري الزّنــد صــافي الخــيمِ نَجْــدِ
يفــوزُ بكُنْيـــتي واسْمـــى لأنيّ	نحلُتهمـــــاهُ والمهـــــديُّ بعـــــدِي
يُغَيَّــبُ عــنهمُ حــتى يقولــوا	تصـــمنه بطِيْبَـــةَ بطـــنُ لحـــدِ

***

ومن ذلك أيضا أنه سمع محدثا يقول إن النبي كان ساجدا فركب الحسن والحسين على ظهره، فقال عمر ﷺ: نعم مطيكما! فقال النبي «ونعم الراكبان هما» فقال السيد في ذلك:

أتـــى حســـنا والحســـينَ النـــبي	وقــد جلســا حَجْــرةً(٢) يلعبــانِ
ففـــــــــداهما ثم حياهُمــــــــا	وكــــانَا لديِـــه بـــذاكَ المكـــانِ

(٢) ناحية.

فراحَـــا وتحتَهمـــا عاتِقـــاهُ فـــنِعْم المطيـــة والراكبـــانِ
وليــــدان امهمـــا بـــــرةٌ حَصـــانٌ مطهـــرٌ للحَصـــانِ

(٦) النقائض

وهي القصائد التي تبادلها شعراء الفريقين من الشيعيين وخصومهم وكانت مملوءة بالشتائم والسباب، مفعمة بالألفاظ النابية التي تنفر منهل الأسماع. وهي وإن كانت تدخل ضمن الهجاء، إلا أني آثرت أن أفرد لها مكانا خاصا. لأن الهجاء عند الشيعة تناول الأموات أكثر من الأحياء؛ تناول أبا بكر وعمر وعثمان وعائشة بالسب واللعن والتكفير، ورميهم بالغدر والخيانة واغتصاب حق علي في الخلافة. أما هذه النقائض فكانت هجاء متبادلا بين شاعر وشاعر يطعن أحدهما في أخلاق الآخر وعرضه وشرفه وحسبه ونسبه، ويتهمه بالفسق والفجور فيرد عليه الآخر ردا فيه فحش وفيد إقذاع. ومن أمثلة ذلك قول كثير وكان يدين بالرجعة

وســطٌ لا يــذوق المــوتَ حــتى يقــودَ الخيــلَ يقْــدُمها اللــواءُ
تغَيَّــبَ لا يُــرَى فــيهم زمــانا بِرَضْــوَى عنــده عَسَــلٌ ومــاءُ

فأتى علي بن الجهم وقال (١):

ورافِضــةٌ تقــولُ بِشِــعْبِ رَضْــوى إمــامٌ، خَــابَ ذلــك مــن إمــام
إمــامٌ مــن لــه عشــرون ألفــا مــن الأتــراكِ مُشــرعَة السِّــهامِ

فرد عليه البحتري بقول:

إذا مــا حُصِــلتْ عُليــا قُــريشٍ فــلا في العــيرِ أنــتَ ولا النفــيرِ
ومــا رُغَثَــاؤُك الجهــنم بــن بــدر مـــن الأَقْمـــارِ ثمَّ ولا البـــدورِ
ولـــو أعطـــاكَ رُّك مـــا تمَـــنَّ لــزادَ الخلــقَ في عِظَــمِ الأُيُــورِ

(١) الأغاني جـ ١٠ / ٢٠٧.

عــلامَ هجَــوْتَ مجتهــدا عليــا بمــا لَفَّقْــتَ مــن كَــذِبٍ وزُورِ
أمالـك في اسْـتِك الوجعـاءِ شُـغْلٌ يَكُفُّـكَ عـن أدى أعـل القبـور

***

كذلك امتازت النقائض بأن الشاعر كان يقول القصيدة، فسرعان ما ينبري شاعر آخر للرد عليه. ومثال ذلك قول أحد شعراء طلحة:

نحــن بنــو ضَــبَّةَ أصــحابُ الجمــلْ نُنــازِل المــوتَ إذَا المــوتُ نــزلْ
نَنْعَـى ابـنَ عفّـان بأطـرافِ الأَسَـلْ لا عـارَ في المـوتِ إذا خـان الأجـلْ
إن عليــا هــو مــن شــرِّ البــدلْ إن تعــدلوا بشــيْخِنَا لا يعتــدلْ

فأجابه رجل من أنصار علي:

نحــنُ قَتَلْنَــا نعــثلاً فــيمن قتــلْ أكثــرَ مــن أكثــرَ فيــهِ أو أقــلْ
أَنَّى يُــرَدُّ نعثــلٌ وقــد قحــل نحـن ضـربنا وسـطه حـتى انجـزلْ
لحكمــه حكــم الطواغيــت الأول آثــرَ بالفــيءِ وجــافيَ في العمــلْ
فَأَبْــدَلَ الله بــه خــيرَ بــدلْ إني امــرؤ مســتقِدمٌ غــير وَكِــلْ

***

ومن هذا النوع أيضا قول الوليد بن عقبة يخاطب أنصار علي متهما إياهم بالاستيلاء على أسلحة عثمان بن عفان وهو:

بـني هاشـم رُدوا سـلاح ابـن أخـتكمْ ولا تنهبــوه لا تَحِــل مناهِبُــهْ
بــني هاشــمٍ كيــف الهــوادَة بيننــا وعنــد علــى درعــه ونَجائِبُــهْ
قتلـتم أخــي كيمــا تكونــوا مكانــه كما غـدرت يزما بكسـري مرازِبُـه

قال ابن أبي الجديد [1]«فأجابه عبد الله بم أبي سفيان بن الحارث بين عبد المطلب بأبيات طويلة من جملتها:

فلا تسأَلوا ما سَيْفكم إنَّ سيفكم أُضِيع وألقاهُ لدى الرَّوْع صاحبِهْ
شَبَّهْتَهُ كِسرَى وقد كان مثله شَبيها بِكِسْرَى هَدْيه وضرائِبه[2]

أي كان كافرا كما كان كسرى كافرا»

ومنها:

وكان وَلِيّ العَهْدِ بعد محمدٍ عليٌّ وفي كلِّ المواطِن صاحِبُهْ
عليٌّ ولي الله أظهر دينه وأنتَ مع الأَشْقين فيمن تحاربه
وقد أنزلَ الرحمنُ أَنك فاسِقٌ فما لَك في الإسْلاَمِ سَهْمٌ تُطَالبُه

---

(1) شرح ابن أبي الحديد جـ ١/ ٩٠.

(2) استبعد صدور هذا من ابن أبي سفيان_ المؤلف.

الباب الرابع

شعراء الشيعة

بلغ شعراء الشيعة من الكثرة مبلغاً عظيماً حتى أصبح إحصاؤهم فضلا عن التكلم عنهم من الأمور العسيرة. ولا أستطيع هنا أن أتناول بالدرس كل من عرف بتشيعه من الشعراء، لأن هذا الكتاب أضيق بكثير من أن يتسع لهذا. إلا أنني أرى لزاما على تتمة للبحث أن أتحدث عن بعض شعراء الشيعة متوخيا في ذلك الإيجاز. وسأبدأ بذكر الشعراء الذين عاشوا في أيام الدولة الأموية ثم أتبعهم ببعض من عاشوا في أيام الدولة العباسية. ثم أتى بعد ذلك بذكر شاعر واحد من شعراء الدولة الفاطمية وهو ابن هانئ الأندلسي.

(١) الكميت

هو الكميت[١] بن زيد الأسدي ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار بن عدنان. قال أبو الفرج[٢]«شاعر مقدم، عالم بلغات العرب، خبير بأيامها، من شعراء مضر وألسنتها، والمتعصبين على القحطانية، المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها. وكان في أيام بني أمية، ولم يدرك الدولة العباسية ومات قبلها. وكان معروفا بالتشيع لبني هاشم، مشهورا بذلك.

---

(١) ذكر الآمدى في المؤلف والمختلف أن من يقال لهم الكميت من الشعراء ثلاثة من بني أسد بن خزيمة (أولهم) الكمبت الأكبر بن ثعلبة بن نوفل بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس (والثاني) الكميت بن معروف بن الكميت الأكبر (والثالث) الكميت ابن زيد الأسدي. والكميت تصغير أكمت على غير قياس. والإسم الكمته وهو من الخيل بين الأسود والأحمر.

(٢) الأغاني طبع دار الكتب جـ ١٥ ص ١٠٩.

وقصائدة الهاشميات من جيد شعره ومختاره».

مولده: ولد في عام ستين هجرية أيام قتل الحسين. ومات سنة مائة وست وعشرين هجرية في خلافة مروان بن مُحَّد آخر الخلفاء الأمويين.

أخلاقه وصفاته: كان الكميت شديد الذكاء، قوي الحافظة، سريع الجواب، حاضر البديهة، فصيحا مفوها، ملما بأيام العرب ومناقبها ومفاخرها، عليما بأنسابها. كما كان كريما دينا، وفارسا شجاعا.

تشيعه: كان الكميت شديد الحب لآل علي، عظيم الولاء والإخلاص لهم. آزرهم وناضل عنهم في وقت الشدة، غير مكترث بسطوة الأمويين وبأسهم. وقد تعرض في سبيل ذلك للهلاك، وتحمل اضطهادا كبيرا وعناء شديدا. قال الجاحظ «ما فتح للشيعة الحجاج إلا الكميت بقوله:

فإن هِيَ لم تَصْلُح لحَيٍ سواهُمُ ... فإنَّ ذَوِي القُرْبَى أَحَقُّ وأَوْجَبُ
يقولُونَ لم تُورثْ ولولا تُراثُه ... لَقَدَ شَرَكَتْ فيه بَكيلٌ وأَرْحَبُ[1]

وإنك لتجد في شعر الكميت ما يدل على تعلقه الشديد بآل علي. ومثال ذلك قوله:

بأَيِّ كتابٍ أَمْ بأَيَّةِ سُنَّةٍ ... ترى حُبَّهم عارا على وتَحْسِبُ
فمالِيَ إلاَّ آلُ أحمدَ شيعةٌ ... ومالي إلا مَشْعَبُ الحقَّ مَشْعَبُ
ومن غيرهم أَرضَى لِنَفْسِيَ شيعةً ... ومن بعدّهم لا من أجلُّ وأَرْجَبُ
إليكم ذوي آل النبيّ تطلَّعت ... نوازِعُ من قلبي ظماءٌ وأَلْبُبُ
فطائفةٌ[2] قد كفرتني بحبكم ... وطائفةٌ[3] قالوا مسئ ومذنبُ
فما سأءَنِي تكفيرُ هَاتِيكَ منهم ... ولا عيب هاتيك التي هي أَعيبُ

(¹) قبيلتان من العرب.

(²) طائفة الخوارج كانت تكفر كل من يحب عليا.

يعيبـونني مـن خِـبهم[1] وضـلالهم على حبكم بـل يسـخرون وأُعجبُ

وقـالوا تـرابي[2] هـواه ورأيـه بـذلك أُدعـي فـيهمُ وأُلَقَّـبُ

ومنها:

ألم تـرَني في حُـبِّ آلِ محمـدٍ أَرُوحُ وأَغْـدو خَائِفـا أَتَرقَّـبُ

كـأني جـان مُحـدِث وكأنمـا بهـم أتقـى مـن خشـية العـار أَجْـرَبُ

علـى أيِّ جـرم أم بأيَّـةِ سـيرةٍ أُعَنَّـفُ في تقـريظهم وأُؤَنَّـبُ

***

غضب هشام عليه، ولما هجا الكميت خالد بن عبد الله القسري عامل هشام علي العراق، أراد خالد أن ينتقم فَرَوَّى جارية حسناء قصائده التي قالها في بني هاشم وأَعّدَّها ليهديها إلى هشام، وكتب إليه بأخبار الكميت وبهجائه بني أمية، وأنفذ إليه قصيدته التي يقول فيها.

فيارب هل إلا بك النصر يُنتغَى ويارب هـل إلا عليـك المعـول؟

وهي طويلة يرثي فيها زيد بن علي وابنه الحسين بن زيد ويمدح نبي هاشم، قال أبو الفرج «فلما قرأها– يعني هشاما– أكبرها وعظمت عليه واستنطرها، وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره وحبس في المحبس».

إلا أن الكميت استطاع أن يهرب من السجن وأقام مدة متواريا «حتى [4] إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلا في جماعة من نبي أسد على خوف

([3]) نسبة إلى أبي تراب وهو لقب علي بن أبي طالب.

([1]) طائفة الأمويين الذين كانوا يتهمونه بالفسق والعصيان.

([2]) الخب: الخبث والخداع.

([4]) الأغاني جـ ١٥/ ١١٠.

ووجل وفيمن معه صاعد غلامه. قال وأخذ الطريق حتى وصل إلى الشام فتوارى في بني أسد وبني تميم» ثم اختلفت الروايات بعد ذلك في كيفية وصوله إلى هشام. وانتهى أمره بأن نال عفو الخليفة ورضاه ومدحه بقصيدة قيل إنه ارتجلها ومنها.

مـــاذَا عليـــك مـــن الوقـــو ... فِ بهـا وإنّـك غـيرُ صـاغرْ
درَجَـــتْ عليـــك العـــاديا ... تُ الرائحـاتُ مـن الأَعاصـرْ
فـــالآنَ صـــرتْ إلى أميـــ ... ـــةَ والأمـــورُ إلى مصـــايِر

***

الهاشميات: وقد جمع شعره الذي قاله في مدح بني هاشم وأطلق عليه «الهاشميات» لأنه احتج فيها لبني هاشم على خصومه وعدد أبياته خمسمائة وستة وثلاثون بيتا. وقد طبعت في أوربا ثم في مصر واهتم غير واحد بشرحها ونشرها. ومن قوله في مدح الهاشميين.

وهـــمُ الآخـــذون مـــن ثِقـــةِ الأمـــ ... ـــرِ بتَقْـــواهم عُـــرًى لا انفْصِـــامِ
والمصِـــيبونَ والمجيبـــونَ للدَّعْـــ ... وَةِ والمحـــرِزُون خَصْـــلَ التَّرَامِـــي
ومُحِلّـــون مُحْرمـــون مُقِـــرُّو ... ن لِحِـــلّ قَـــرَارَةٍ وحَـــرَامِ
ساســـةٌ لاكمـــن يرعـــى النـــا ... سَ ســـواءً ورِعْيَـــةَ الأَنعـــامِ
لا كعبـــدِ المليـــكِ أو كوليـــدٍ ... أو ســـليمانَ بعـــد أو كهشـــامِ
رأيـــهُ فـــيهمُ كـــرأيِ ذوي الثَّلـــ ... ـــةِ في الثَّائجـاتِ جُـنحَ الظـلامِ

يقول إن بني هاشم ينظرون إلى الناس بعين العطف والرعاية، ويعملون ما فيه خير الرعية، لا يدعونهم هملا كالأنعام كما يفعل الأمويون الذين ينظرون إلى الناس نظر صاحب القطع الكثيرة إلى غنمه والثائجات: الضأن. والثلة: الكثير

من الضأن.

ثم قال:

فهـــمُ الأقربــونَ مـــن كـــلِّ خـــيرٍ وهُــــمُ الأبعــــدون مــــن كــــلّ ذامِ
وهـــم الأرأفـــون بالنـــاس في الـــرأ فَــــةِ والأّحلمــــون في الأحــــلامِ
بســـطوا أيـــدِى النَّـــوالِ وكَفـــوُّا أيـــدي البَغْـــيِ عـــنهم والعُـــرَامِ
أخـــذو القصـــدَ فاســـتقاموا عليـــه حـــين مَالـــت زَوامِـــلُ الأَيَّام

يمدح الهاشميين بقوله إنهم يعملون كل خير، ويتجنبون كل شر ويبتعدون عما يعاب عليه الناس. وهم الذين يرأفون بالرعية ويسعونها بحلمهم ويشملونها بعطفهم، ويسبغون عليها يد الجود، ولا يفكرون في العدوان على أحد، أو البغي عليه (والعرام هو الجهل). وقد اعتدل الهاشميون في كل الأمور ولزموا جانب العدل والحق حين ركب غيرهم متن الشطط والبغي والجور والعسف؛ (والزوامل الإبل التي تحمل عليها الحمولة، فيكون الشاعر قد شبه الآثام بالزوامل).

ومنها:

خـــيرُ حَـــيَ وميّـــتٍ مـــن بـــني آ دمَ طُـــرًّا مـــأمومِهم والإمـــامِ
كـــان ميتـــا جنـــازة خـــير ميـــتٍ غَيَّبتـــه مَقَـــابرُ الأقْـــوامِ
وجَنينَـــا ومُرْضـــعا ســـاكن المهـــ ـــد وبعـــد الرَّضَـــاعِ عنـــد الفِطَـــامِ
خـــير مُسْتَرضِـــع وخـــيرَ فَطـــيم وجنـــين أُقِـــرَّ في الأرحـــام
وغلامـــا وناشـــئا ثم كهـــلا خَيْـــرَ كَهْـــلٍ وناشـــيءٍ وغـــلامِ
أنقـــذ الله شِـــلْونا مـــن شَـــفَا النا رِ بـــه نعمـــةً مـــن المِنْعَـــامِ
طيـــبُ الأصـــل طيـــبُ العُـــود في البنـــ ـــيَةِ والفـــرعِ يثْـــرِ بِيٌّ تَهَـــامِي

يقول إن بني هاشم خير حي وخير ميت سواء في ذلك الإمام والمأموم ثم ذكر أن رسول الله كان خير ميت وأكمل إنسان من يوم أن كان جنينا إلى أن

انتقل إلى جوار ربه. والشاعر يرجو أن ينجيه الله من عذاب النار بشفاعة رسوله. والمنعام هو الله الذي ينعم على عبيده بالخير والبركات. «والشلو الجلد»، «والشفا حرف كل شيء» ثم قال إن الرسول كان طيب الأصل وطيب البنية والتكوين، طيب الخَلق والخُلق.

***

أما بعد، فقد رأيت كيف كان الكميت يمدح العلويين وينتصر لهم في وقت أوجب الأمويون فيه سب عليّ ولعنه، وتتبعوا كل من عرف بهزاه لآل عليّ بالسجن والقتل والتعذيب والاضطهاد والحرمان من كل شيء، فكان الناس لا يجرءون على ذكر علي. ولكن بالرغم من كل هذا كان الكميت الشاعر الوحيد في عصره الذي أستطاع أن يرفع صوته بمدح الهاشمين والدفاع عن حقهم، والطعن الشديد على الأمويين في غير خوف ولا وجل. ولم يقلع عن هذا إلا فترة قصيرة حين شعر بالخطر فأضطر إلى مدح الأمويين. رُوى أنه لما حضرته الوفاة فتح عينيه وقال: اللهم آل مُحَّد، اللهم آل مُحَّد، اللهم آل مُحَّد.

(٢) كثير

هو أبو ضهر كُثيّر بن عبد الرحمن بن الأسود. قال أبو الفرج [١]«هو من فحول شعراء الإسلام، وجعله ابن سلام في الطبقة الأولى منهم، وقرن به جريرا والفرزدق والأخطل والراعي. وكان غاليا في التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ، وكان مُحَمَّقا مشهوراً بذلك». وقال ابن سلام[٢] في كتابه طبقات الشعراء «سمعت يونس النحوي يقول كان ابن أبي اسحاق يقول: كان كثير أشعر أهل الإسلام».

---

(١) الأغاني جـ ٩ ص ٤.

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٠٢.

أخلاقه وصفاته: كان كُثَيِّر ساذجا سريع التصديق لكل ما يقال له وكان كَثِيرَ التيه بنفسه، عظيم الخيلاء، كما كان مفرطاً في القصر دميم الخلقة. قال ابن سلام الجمحي «قال يونس النحوى: كثير أشعر أهل الإسلام كان قصيرا مفرط القصر. روى عن الوقاص أنه قال: رأيت كثيرا يطوف بالبيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذبه» وقد هجاه الشاعر المعروف بالحزين الكناني بقوله:

قصير القميص فاحِشٌ عند بيته   يَعَضُّ القرادُ بآسْتِهِ وهو قائمُ

شاعريته: كان كثير غزير الشعر قويه. ذكر ابن رشيق في كتاب العمدة «أن مروان بن أبي حفصه كان يقدم كُثَيِّرا في المدح على جرير والفرزدق» وقال أبو الفتوح «أخبرني الحرمي بن أبي العلاء قال حدثني الزبير بكار قال كتب إليّ إسحق بن إبراهيم الموصلي حدثني إبراهيم بن سعد قال: إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة لَوْ رُقِيَ بها مجنونٌ لأَفاق، وروى أبو الفرج أيضاً أن ابن أبي عبيدة كان يملي شعر كثير بثلاثين دينارا».

تشيعه: كان كثير شديد الحب لآل علي، قضى حياته كلها وهو معمور القلب بالإخلاص والولاء لهم. روى أنه كان بمكة فأمر بلعن علي فرقي المنبر وأخذ بأستار الكعبة وقال:

ببياضِ الدِّماث [1] من بطن ريم   فبخفضِ الشُّجُون من [2] أجام
أَيُسَبُّ المطهرونَ أصولاً   والكرامُ الخئول والأَعْمّامِ
يأْمنُ الطيرُ والحمامُ ولا   يأمنُ آلُ الرسولِ عندَ المقَامِ
رحمةُ اللهِ والسلامُ عليهمْ   كلَّما قامَ قائِم الأَسلامِ

---

(١) الدماث جمع دمث وهو المكان اللين ذو الرمل.

(٢) الجام موضع في المدينة.

قال أبو الفرج «فلما سمع الناس قوله هذا أنزلوه من المنبر وأثخنوه ضربا بالنعال وغيرها فقال:

إن أمـــرا كانـــتْ مســـاوِيُهُ ... حُـــبَّ النـــبي لَغَيْـــرُ ذي عَتْـــبِ
وبـــني أبي حســـنٍ ووالـــدُهم ... مـن طـابَ في الأَرْحَـامِ والصُّـلْبِ
أتـــرون ذنبـــاً أن نَسُـــبَّهُمُ ... بـــل حُـــبُّهُم كفـــارة الـــذنب

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد «ومن الروافض كثير عزة الشاعر ولما حضرته الوفاة دعا ابنه أخ له فقال: يابنة أخي، إن عمك كان يحب هذا الرجل، فأحبيه، يعني علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فقالت: نصيحتك يا عم مردودة عليك، أحبه والله خلاف الحب الذي أحببته أنت، فقال لها: برئت منك. وأنشد يقول:

برئـت إلى الأالـه مـن ابـن أروى[1] ... ومـــن قـــول الخـــوارج أجمعينـــا
ومـن عُمّـرٍ بَرِئْـتُ ومـن عَتِيـقٍ[2] ... غـــدَاةَ دُعَـــى[3] أمـــير المؤمنينـــا

وقد بلغ كم حبه لآل علي أنه كان يهب لأطفالهم ما يحصل عليه من جوائز وصلات ومنح وهبات. قال أبو الفرج «كان كثير شيعيا، وكان يأتي ولد حسن بن حسن إذا أخذ عطاءه، فيهب لهم الدراهم ويقول: وابأبي الأنبياء الصغار! فيقول له مُحَمَّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو أخوهم لأمهم يا عم: هب لي، فيقول لا، لست من الشجرة».

علاقته بمحمد بن الحنيفة: كان عبد الله بن الزبير شديد الوطأة على

---

(١) ابن أروي: عثمان بن عفان.

(٢) عتيق: أبو بكر.

(٣) دعى لغة في دعي.

العلويين(١) يتتبعهم بكل مكروه، ويغرى بهم على المنابر ويصرح ويعرض بذكرهم، فربما عارضه ابن عباس وغيره منهم، ثم بدا له فحبس ابن الحنيفة في سجن عارم ثم جمعه وسائر من كان بحضرته من بني هاشم فجعلهم في محبس وملأه حطباً وأضرم فيه النار. وقد كان بلغه أن أبا عبد الله الجدلي وسائر سيعة مُحَمَّد بن الحنيفة قد وافوا لنصرته ومحاربة ابن الزبير. فكان ذلك سبب إيقاعه به. وبلغ أبا عبد الله الخبر فوافى ساعة أُضرمت النار عليهم فأطفأها واستنقذهم وأخرج ابن الحنفية عن جوار ابن الزبير يومئذ فقال كثير في ذلك:

لـك الويـل مـن عيـني خُبَيْـبٍ وثابـتٍ ... وحمـزةَ أشـباهَ الحـداءِ (٢) التـوائِم

تُخَـبِّر مَـنْ لاَقيـتَ أنـكَ عائـذٌ ... بلي العائذُ المظلومُ في سجنِ(٣) عارم

فمن يرَ هذا الشيخَ بالخَيْفِ من مِنًى ... مـن النـاس يَعْلَـمْ أنَّـه غـير ظَـالِمِ

سَمِـيُّ النَّـبِيّ المصـطفى وابـن عمـهِ ... وفَكَـاَكُ أَغْـلالٍ ونفَّـاعُ غَـارِمِ

أبى فهـو لا يَشْـرِي هُـدًى بضـلالةٍ ... ولا يتقـى في اللهِ لومـةَ لأَئـمِ

ونَحْـنُ بحمـدِ اللهِ نتلـو كتابَـه ... حَلَـولاً بهـذا الخيـف خيـفِ المحـارِمِ

بحيـثُ الحَمَـامُ آمِـنُ الـروعِ سـاكنٌ ... وحيـثُ العـدوُّ كالصـديقِ المسـالم

فمـا فـرحُ الـدنيا ببـاقٍ لأَهْلـهِ ... ولا شِـدَّةُ البَلْـوَى بضـربةِ لازم

ومن قوله يمدح مُحَمَّد بن الحنفية وقد تلطف به ودعاه إليه وسأله عن أبنائه:

اقـرَّ اللهُ عيـنىَ إذ دّعـانى ... أمـينُ الله يُلْطِـفُ في السُّـؤَالِ

وأَثـنى في هـواىَ عَلـيَّ خـيرا ... ويَسْـأَلُ عَـنْ بَـنِىَّ وكيـفَ حـالِى

وكيـف ذكـرت حـال أبي خَبيْـبٍ ... وزِلَّـةَ فعلـهِ عنـدَ السـؤالِ(٤)

---

(١) الأغاني جـ ٩/ ١٤.

(٢) خبيب وثابت وحمزة أولاد عبد الله بن الزبير. والحداء جمع حدأة وهي الطائر والتوأم جمع توأم.

(٣) قوله عائذ لقب عبد الله بن الزبير لأنه عاذ بالبيت. والمظلوم هو ابن الحنفية وسجن عارم سجن بمكة.

(٤) أبو خبيب هو عبد الله بن الزبير.

هو المهديُّ خبَّرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالى

والبيت الأخير يظهر لنا كيف كان الشيعة يستحلون لأنفسهم الكذب في سبيل تأييد مذهبهم. فأنت ترى كثيراً قد أدعى في هذا البيت أن كعبا خبره بأن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر. فلما قيل له ألقيت كعبا؟ قال: لا، قيل له: فلم قلت «خبرناه كعب»؟ قال بالتوهم(1).

اعتقاده في ابن الحنفية: كان كثير يقدس ابن الحنفية ويجله ويرى أنه هو المهدي المنتظر. ومع أن ابن الحنفية مات سنة ٨١ هـ بالمدينة وصلى عليه إبان بن عثمان بن عفان ودفن بالبقيع، إلا أن كثيرا رفض كما رفض غيره يذهب مذهب الكيسانية أن يصدق ذلك، وظل معتقدا بأنه حى لم يمت، يقيم بجبل رَضْوَى وعنده عسل وماء وأن الملائكة تسعى إليه وتراجعه الكلام. وهو بين أسد ونمر يَحْفَظَانِهِ قال:

ألا إنَّ الأئمةَ من قريشٍ ولاةُ الحق أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بنيه همُ الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبر وسبطٌ غَيَّبَتْهُ كربلاءُ
تَغَيَّبَ لا يُرة عنهم زَماناً بِرَضْوَى عنده عَيَلٌ وماءُ

علاقته بأبي هاشم عبد الله: وكان كثير على درجة كبيرة من الغفلة وكان أبو هاشم عبد الله بن مُحَمَّد بن علي يعلم ذلك جيدا فكان يضع الأرصاد على كثير، فلا يزال يؤتي بالخبر من عنده، فيقول إذا لقيه: كنت في كذا وكنت في كذا، إلى أن جرى بين كثير وبين رجل كلام فأتى به أبو هاشم فأقبل به على أدراجه، فقال له أبو هاشم: كنت الساعة مع فلان فقلت له كذا وكذا، وقال

(1) الأغاني جـ ١٦/٩.

لك كذا وكذا، فقال له كثير: أشهد أنك رسول الله».

مدحه لآل مروان: وكان كثير مع حبه الشديد لآل عليّ يمدح آل مروان ليظفر منهم بالعطايا والمنح. ولا شك في أنه لم يكن صادقا في مدحهم، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك ويحتملونه منه لأنه كان يمدحهم فيحسن مدحهم. قال أبو الفرج[1]«وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يُغيرهم ذلك لجلالته في أعينهم ولطف محله في أنفسهم وعندهم». وقد قال له ابن الحنفية «تزعم أنك من شيعتنا وتمدح آل مروان» قال: «إنما أسخر منهم وأجعلهم حيات وعقارب، وآخذ أموالهم» ومن هذا ترى الفرق عظيما بين كثير والكميت. فالكميت عرض نفسه كما مر بنا للهلاك ، أما كثير فإنه استطاع أن يجمع بين حبه لآل علي وبين رضا آل مروان فلم يتعرض لمثل ما تعرض له الكميت بل عاش آمناً مطمئناً. وقد رحل إلى العراق وقدم مصر واشتهر بكثرة غزله بحسناء تسمى عَزَّة حتى قرن بها فأصبح يعرف باسم (كُثَيِّر عَزَّة).

وفاته: توفى كثير عام ١٠٥ هـ في نفس اليوم الذي توفى فيه عكرمة مولى ابن عباس. قال أبو الفرج: «فاجتمعت قريش في جنازة كثير، ولم يوجد لعكرمة من يحمله. وقيل مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس».

(٣) العبلى

هو عبد الله بن عمر ينتهى نسبه إلى عبد الله بن شمس بن عبد مناف. فهو أموى النسب ولكنه كان علوى الهوى. ويكنى أبا عّدِىّ. وهو كما قال صاحب الأغاني شاعر مجيد من مخضرمي الدولتين.

تشيعه: كان أبو عدي محباً لآل على، مخلصا في حبه لهم. وقد جر عليه

---

(١) الأغاني جـ ٩/ ٤.

هذا سخط الأمويين فاضطهدوه واحتقروه، وأقصوه عنهم، ومنعوا عنه عطاءهم وقد احتمل كل هذا دون أن تلين قناته. قال أبو الفرج وكان ابو عدى الأموى الشاعر يكره ما يجرى عليه بنو أمية من ذكر على ابن أبي طالب صلوات الله عليه، وسبه على المنابر، ويظهر الإنكار لذلك فشهد عليه قوم من بنى أمية بمكة بذلك ونهوه عنه، فانتقل إلى المدينة وقال في ذلك.

شَــرَّدوا بى عنــد امتــداحِى عليًّــا ... ورأوا ذاك فىّ داءً دَوِيًّـــــــــــــا
فـــورَبِىَ لا أبـــرحُ الـــدهرَ حـــتَّى ... تُخْتَلَـــى[1] مُهجـــتى بحـــبى عَلِيّـــا
وبنيــــــه لحــــــبِّ أحمـــــدَ إنى ... كنـــتُ أحبَبْـــتهم بحـــبِّ النبيَّـــا
حُـبُّ ديـن لا حُـبُّ دنيـا وشـرك الـ ... ـــحُبِّ حـــبٌّ يكـــون دُنْيّـــاوِيًّا
صـــاغنى اللهُ في الذؤابـــةِ مـــنهم ... لا زنيمـــا ولا ســـنيدا[2] دعيًّـــا
عَـــدَوِيًّا خـــالى صـــريحا وجـــدِّى ... عبـــدُ شمـــس وهاشـــم أَبَـــوَيًّا
قســـــواءٌ علـــــىَّ لســــت أبالى ... عَبْشَـــمِيًّا دُعِيـــت أم هاشِمِيًّـــا

وكان أحيانا يمدح الأمويين لينال منهم شيئاً من العطاء ولكنهم كانوا يعرضون عنه ويهملون أمره. وإذت منحوه فالنزر اليسير. لقد مدح هشام بن عبد الملك بقصيدة جاء فيها:

عبــد شمــس أبــوك وهــو أبــونا ... لا ناديـــك مـــن مكـــان بعيـــدِ
والقـــرابات بيننـــا واشـــجاتٌ ... مُحْكَمـــاتُ القـــوى بحبـــل شـــديد

وظل العبلى واقفا بباب هشام بينما ساشر الناس قد سمح لهم بالدخول وأخيرا دعى فمنحه هشام قدرا يسيرا من المال لم يرضه لنفسه فانصرف وقال:

خَسَّ حظى أن كنتُ من عبدِ شمسٍ ... ليتـــنى كنـــت مـــن بـــنى مخـــزومِ

([1]) تقطع مهجتي: يقول إنه يموت على حبهم.

([2]) الدعى بالقوم اللصيق بهم دون أن يكون منهم.

فــأفوزَ الغـــداةَ فـــيهم بســـهم		وأبيـــعَ الأبَ الكـــريمَ بلـــومِ

وبنو مخزوم سبقوا أبا عدي في الدخول على هشام فأجزل لهم العطاء.

***

ولما سقطت الدولة الأموية رثاها بقصيدة قوية جاء فيها:

فبنو أمية خير من وطيء الثرى		شـرفا وأفضـل ساسـة أمراؤهـا

***

ولما أفضت الدولة إلى بنى هاشم وجدُّوا في تعقب الأمويين والفتك بهم حتى خشى صاحبنا على حياته من الهلاك إذ أنه أموي النسب كما قدمنا. قال صاحب الأغانى «كان أبو عدى الذي يقال له العبلى مجفوا في أيام بنى مروان، وكان الأمر في قتلهم جد إلا من هرب وطار على وجهه فخاف أبو عدى أن يقع به مكروه في تلك الفورة فتوارى. وأخذ داود بن على حرمه وماله، فهرب حتى أتى أبا العباس السفاح، فدخل عليه في غمار الناس متنكرا وجلس حَجْرَةً (ناحية) حتى تقوض القوم وتفرقوا وبقى أبو العباس مع خاصته، فوثب إليه أبو عدي فوقف بين يديه وقال قصيدة جاء فيها:

إلى أهـلِ الرسـولِ غـدتْ برَحْلـى		غُـــــذافِرةٌ ترامَـــــى بالصَّـــــحَارِى

ومنها:

أتؤخّـــذُ نِسْـــوَتى ويُحـــاز مـــالى		وقـــد جَـــاهَرْتُ لـــو أغـــنى جِهـــارِى

وأُذعَـرُ أن دُعيـتُ لعبـدِ شمـسٍ		وقـد أَمْسَـكْتُ بالحَـرَمِ الصَّـوَارى

بنصـــرةِ هاشـــمٍ وبحـــق ضِـــهْرٍ		لأحنـــدَ لَفَّـــهُ طِيـــبُ النِّجـــارِ

ومنـزلُ هاشـمٍ مـن عبـد شمـسٍ		مكـانُ الجِيـدِ مـن عُلْيـا الفِقَـار

فقال له السفاح: من أنت؟ فانتسب له فقال له: حق لعمرى أعرفه قديما ومودة لا أجحدها، وكتب إلى داود بن على بإطلاق من حبسه من أهله ورد أمواله عليه وإكرامه، وأمر له بنفقة توصله المدينة[1]».

غضب المنصور عليه: ولكن المنصور سمع بقصائده التي يرثي بها بنى أمية فاستقدمه إلى قصره واستنشده تلك القصائد فقال له: اعفنى يا أمير المؤمنين، ولكن المنصور أبى إعفاءه، فأنشد إحدى هذه القصائد بعد أن أمنه المنصور على حياته، حتى إذا وصل إلى قوله:

فبنو أمَيَّةَ خير من وَطِىءَ الثرى شرفا وأفضّلُ ساسةٍ أمراؤُها

قال له: اخرج عنى لا قرب الله دارك. فخرج من عنده حتى إذا جاء المدينة وجد مُحَمَّد بن عبد الله بن حسن قد خرج على المنصور فانضم إليه وبايعه. وكان مُحَمَّد بن عبد الله شديد الميل للعبلى، فعينه واليا على الطائف فذهب إليها وأقام بها حتى انهزم مُحَمَّد بن عبد الله فشعر صاحبنا بالكارثة التي تعرض لها فهرب إلى اليمن.

(٤) السيد الحميرى

هو إسماعيل بن مُحَمَّد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرة، يكنى أبا هاشم ويلقب بالسيد. وهو يمنى من حمير. قال:

إنى امرؤ حميري غيرُ مُؤتَشِبِ جَدِّى رُعَيْنٌ واخو إلى ذوو يَزَن
ثم الولاء الذي أرجو النجاةَ به يومَ القيامة للهادِى أبي الحسنِ

مولده: ولد السيد الحميرى من أبوين إباضيين[2] بالبصرة عام ١٠٥هـ في

(١) الأغاني جـ ١١/ ٢٩٣.

(٢) قوم من الخوارج يسبون عليا ويكفرونه.

نفس السنة مات فيها كثير. وكان أبواه يكفران عليا ويسبانه. روى الأصفهانى[1] عن إسماعيل بن الساحر راوية السيد أنه قال «كنت عنده يوما في جناح له، فأجال بصره ثم قال: يا إسماعيل، طال والله ما شتم أمير المؤمنين عليّ في هذا الجناح. قلت: ومن كان يفعل ذلك؟ قال: أبواى» وفي ذلك يقول:

لعن الله والديَّ جميعا ثم أصلاهما عَذابَ الجحيم

شاعريته: والسيد الحميرى شاعر مفلق مطبوع، جيد الشعر إلى أبعد حد، كثير القصيد. قال الجاحظ في كتاب البيان[2] والتبيين «والمطبوعون على الشعر من المولدين بشار العقيلى، والسيد الحميرى، وأبو العتاهية وابن أبة عيينة وقال أبو الفرج «وكان شاعرا متقدما مطبوعا، يقال بأن أكثر الناس شعرا في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار، وأبو العتاهية، والسيد، فإنه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم» وكان الأصمعى يقول «لولا مذهبه ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته».

ونحن الآن نقرأ كثيرا لأبي العتاهية، ولكننا لا نكاد نجد شيئا نقرأه للسيد، فقد ضلع شعره، وماتت شهرته، واندثرت أخباره وقبر في زوايا النسيان، وذلك لأن شعره حوى كثيرا من السب للصحابة فهجره الناس خوفا على أنفسهم من الكفر. قال صاحب الأغاني:

«وإنما مات ذكره، وهجر الناس شعره لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره، وما يستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحومى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تخوفا وتوقيا».

---

(1) الأغانى.

(2) البيان والتبيين جـ ٥٤/١.

تشيعه: نشأ السيد الحميرى في بيت كثر فيه سب على ولعنه، فلم يسلك مسلك أبويه في هذا، بل مال بطبيعته إلى آل علي، وأحبهم حبا شديدا وأخلص في حبه، وأفرط في ولائه. وقد عرف أبواه ذلك منه فهما بقتله. وكان على مذهب الكيسانية يدين برجعة مُحَّد بن الحنفية. قال الشهرستاني(١) عند الكلام عن مُحَّد بن الحنفية «كان السيد الحميرى يعتقد أنه لم يمت وأنه في جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا» وقال صاحب فوات الوفيات «كان رافضيا زائغا عن القصد له مدائح جمة في آل البيت». وقال ابن حزم(٢)«ومنهم من قال بنبوته «أي علي بن أبي طالب» وبتناسخ الأرواح ومنهم السيد الحميرى». والرأي عندي أن ابن حزم لم يوفق إلى الصواب فيما ذكر عن السيد، فأخبار هذا الشاعر وقصائده التي وصلت إلينا لا تؤيد قول ابن حزم فيه بل هي تثبت إثباتا قاطعا أن السيد كان يؤمن بعلي كوصي للرسول وكخليفة له بالنص وأن من خالف أمر الرسول فقد كفر، ولهذا انهال على بعض الصحابة ممن ناهضوا عليا بالطعن والسب واللعن.

***

عاش السيد طوال حياته يشيد بمناقب آل البيت، ويذود عنهم، ويدافع عن حقوقهم المهضومة، وكان قويا في دفاعه، جريئاً في إظهار حبه وإخلاصه. وقد بلغ به حبه لآل علي أنه كان إذا رأى رجلا ينال منهم لا يتأخر عن قتله إن استطاع إلى ذلك سبيلا. روى أنه كان مسافرا إلى الأهواز على ظهر سفينة، وكان معه رجل أظهر بغضه لعلي، فلما كان الليل قام هذا الرجل ووقف على

---

(١) الملل والنحل ص ٥٦.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ص ١١٤.

حرف السفينة ليبول، فما كان من السيد الحميرى إلا أن دفعه فهوى المسكين في الماء وغرق. وسمع مرة رجلا ينال من عثمان فقال:

شَـفَيْتَ مـن نعثـل في نَحـتِ أُثلَتِـهِ   فاعْمَـدْ هَـديتَ إلى نحـتِ الغَـوِيَّيْنِ
اعْمَدْ هُديتَ إلى نَحْتِ اللذينِ هما   كـانا علـى الشَـرِّ لـو شـاءَا غَنِيَّـيْنِ

وقال وهو يحتضر:

بَرِئْــتُ إلى الإلــهِ مــن ابــنِ أرْوَى   ومِـــن ديـــنِ الخـــوارِجِ أجْمَعينـــا

***

وكان السيد كما رأيت مما تقدم يدين بإمامة مُحَّد بن الحنفى ويعتقد أنه هو المهدي المنتظر. فهو من هذه الناحية يتفق مع كثير في المذهب، ونتج عن هذا أن بعض أشعار أحدهما تنسب للآخر. وللسيد الحميرى قصيدة جيدة خاطب فيها ابن الحنفة مستعجلا عودته لأنه غاب ستين عاما، وقد أضر غيابه بقومه. قال:

ألا قـلْ للوصـي فـدتْكَ نفسـي   أطلْــتَ بــذلكَ الجبــلِ المقامَــا
أضــرَّ بمعشــرٍ والَــوْك منــا   وسَمَّــوْكَ الخليفـــةَ والإمامِــــا
وعـادّوا فيـك أهـلَ الأرض طرًّا   مقَامُــك عــنهم ســتِّين عامَــا
وما ذاقَ ابنُ خولة طعَم موتٍ   ولا وارتْ لــــه أرضٌ عظامَـــا
لقـد أَوْفى بمورقٍ شِعبِ رَضوى   تراجِعُـــه الملائكـــةُ الكلامَـــا
وإنَ لــه بــه لَمَقِيــلَ صــدقٍ   وأنديـــــةً تحدّثـــــه كِرامَـــــا
هـــدانا اللهُ إذ جُـــزْتم لأَمْـــرٍ   بــه ولديــه نلــتمس التَّمامَــا
تمــام مــودةٍ المهــديّ حــتى   تــروا راياتِنــا تَــتْرى نِظامَــا

وقد نسب الدكتور طه[1] حسين بك هذه القصيدة إلى كثير. قال «وأنا أروي لك شيئاً من شعر كثير فيها «الرجعة» فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التي يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بني هاشم» ثم أورد القصيدة السالفة وعلق عليها بقوله «ولعلك تلاحظ معي أن غياب مُحَمَّد بن الحنفية إن كان أضر بقوم فليس كثير من هؤلاء القوم». ولكن نسبة هذه القصيدة إلى كثير خطأ شنيع لأن نظرة بسيطة فيها تنفي نسبتها إلى كثير نفيا باتا. أنظر إلى ما ورد فيها.

وعـادوا فيـك أهـل الأرض طـرا	مقَامُـك عـنهم سـتين عامـا

فإذا كان مُحَمَّد بن الحنفية مات عام ٨١ هـ لزم أن يكون قائل هذا الشعر موجودا في عام ١٤١ هـ. ومن حيث إن كثيرا مات في عام ١٠٥هـ ولم يعش ستين عاما بعد ابن الحنفية، فمن المؤكد أنه لم يقل هذا الشعر.

***

كان السيد لا يسمع بمنقبة لعلى إلا نظم فيها شعرا. وحدث أنه كان في مجلس ونسب إليه الرفص فأنكر، فطلب منه بعض الحاضرين أن يمدح أبا بكر وعمر. فقال في ذلك مشيرا إلى حادثة غدِيرِ خُم، وقد سبق أن تكلمنا عنها عند الشعر المنسوب إلى الإمام علي.

إذا أَنا لم أَحفـظْ وَصـاةَ محمـدٍ	ولا عَهـدَهُ يـومَ الغَـديرِ المؤكَـدَا
فإني كمن يَشْرِى الضلالة بالهدَى	تَنَصَّـرّ مـن بعـدِ الـتُّى وّتَهَـوَّدَا
ومـالى وتـيم أو عـدى وإنَّمـا	أُولُـو نعمـتي في الله مـن آلِ أحمـدَا
تَـتِم صـلاتِي بالصَّـلاةِ علـيهمُ	وليسـتْ صـلاتِي بعـد أن أتَشَـهَّدَا

[1] حديث الأربعاء جـ ١/ ٣٦٥.

بكاملـــةٍ إن لم أصـــلِّ علـــيهمُ　　　وأّدعُ لهـــم ربا كريمـــا مُمَجَّـــدَا
بـذلتُ لهـم وُدِّى ونُصـحى ونُصْـرَتِى　　　مّدَى الدهرِ ما سُمِّيُت يا صاح أحمدَا
وإن أمرأً يُلْحَى على صدق ودِّهِم　　　أحـــقُّ واوْلَى فـــيهم أن يُفَنَّـــدَا
فإن شئتَ فاختر عاجل الغَمِّ ضَلَّةً　　　وإلا فأَمْسَـكْ كـي تصـانَ وتُحْمَـدَا

ثم نهض مغضبا.

وسمع السيد مرة رجلا يقول: أشعر الناس من قال:

محمد خيرُ مـن يمشـي علـى قـدمٍ　　　وصـاحِبَاهُ وعثمـانُ بـنْ عفـانا

فوثب السيد وقال: أشعر والله منه الذي يقول:

سائلْ قريشاً إذَا ما كنتَ ذَاعَمهٍ　　　من كانَ أثبتَها في الدينِ أو تَادَا
مـن كـان أعلَمهـا علمـا وأحلَمهـا　　　حلمـا وأصـدَقها قـولاً وميعـادَا
إن يَصدُقوكَ فلَن يَعذة أَبا حسنٍ　　　إنْ أنـتَ لم تلْقَ للأَبْـرَار حُسَّـادّا

***

وكان السيد يجلس مع قوم أخذوا يتحدثون عن الزرع والنخل، فهم بالانصراف فسئل عن سبب ذلك فقال:

إني لأكـــرهُ أن أطيـــلَ بمجلـــسٍ　　　لا ذِكْـرَ فيـهِ لِفَضْـل آلِ محمـدِ
لا ذكـــر فيـــهِ لأحمـــدٍ ووصِـــيِّهِ　　　وبنيـهِ ذلـكَ مجلـسٌ نطـف نـدِى
إن الـــذي ينسَـــاهُمُ في مجلـــس　　　حـــتى يُفَارِقَـــهُ لَغَـــيْر مُسَـــدَّدِ

ومن قوله في محمد بن الحنفية.

يُغيَّـــبُ عـــنهمُ حـــتى يقولُـــوا　　　تَضَـــمَنَّهُ بِطَيْبَـــةَ بَطُـــنُ لحـــدِ

سِــنينَ وأَشْــهراً ويُـــرَى بِرَضْـــوَى ... بِشِـــعب بـــين أَنْمَـــارٍ وأُسْـــدِ
مُقــــــيمٌ بــــــين آرامٍ وعِـــــــينٍ ... وَحفَّـــانٍ تـــروح خِـــلالَ رُبْـــد
تُراعِيهـــا الســـباعُ ولـــيْسَ مِنهـــا ... مُلاقِـــــيهُنَّ مُفْتَرِسًـــــا بِحَـــــدِّ
أمِـــنَّ بـــه الـــرَّدي فـــرتعن طَـــورا ... بـــلا خـــوفٍ لـــدى مرْعـــىً وَوَرْدِ
حلفـــتُ بـــرب مكّـــة والُمصَـــليَّ ... وبيـــتٍ طـــاهرِ الأرْكـــانِ فَـــرْدِ
يَطـــوفُ بـــه الحجِـــيجُ وكـــلَّ عـــام ... يَحُـــلُّ لدَيْـــه وفْـــدٌ بعـــد وَفْـــدِ
لقــد كــان ابُــن خولــةَ غــيرَ شــكّ ... صَـــفاءَ ولايـــتي وخُلـــوصَ وُدِّى
فمـــا أحـــدٌ أحَـــبُّ إليَّ فيمـــا ... أُسِـــرُّ ومـــا أبـــوحُ بـــه وأُبـــدْي

وهي طويلة ترى فيها خيالا ممتعا أخذ يوما بعد يوم حتى أصبح عند عامة الملسمين حقائق لا تقبل الشك ولا يأتيها الباطل.

مدحه للعباسيين: ولما كان السيد يؤمن برجعة ابن الحنفية، لم يجد بأسا في مدح العباسيين، فقال فيهم القصائد الرائعة، ونال منهم الجوائر والصلات. وكان العباسيون يعرفون أنه غير صادق في مدحهم لكنهم كانوا يتغاضون عنه. وقد كان لا ير مانعاً من كسب عطف العباسيين وانتظار ساعة الفرج والخلاص، تلك الساعة التي أشتاق كثيرا إليها، وهي التي يرجع فيها محمد بن الحنفية يقدمه اللواء، ليملأ الأرض عدلا وصلاحا كما ملئت جورا وفسادا. وهو في موقفه من العباسيين يشبه تماما موقف كثير من الأمويين.

وفاته: توفى السيد ببغداد عام ١٧٣ هـ في أوائل خلافة الرشيد.

(٥) دعبل الخزاعى

هو دِعْبِلُ بن علي بن رزين بن سليمان، ويكنى أبا علي. ينتهي نسبه إلى خزاعة فهو يمني ولذلك كان يتعصب لليمانية.

مولده: ولد عام ١٤٨ هـ ببلدة الطيب وهي بين واسط وبغداد.

شاعريته: قال ابن خلكان «كان شاعرا مجيدا، إلا أنه كان بذيء اللسان، مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس» وقال أبو الفرج[1]«شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان» وهو تلميذ مسلم بن الوليد الأنصاري وعليه تخرج. وكان البحتري يفضله على مسلم. قال «دعبل بن على أشعلا عندي من مسلم» فقيل له: وكيف ذلك، قال «لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشبه بمذاهبهم[2]».

أخلاقه وصفاته: كان دعبل هجاء خبيث اللسان لم يسلم منه أحد من الخلفاء، ولا من الوزراء ولا من أولادهم ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبير أو عظيم. هجا الرشيد والمأمون والمعتصم. وكان كثير الأسفار، أقام مدة ببغداد ثم رحل منها إلى دمشق ومصر كما سافر إلى خراسان.

تشيعه: قال أبو الفرج «وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى علي صلوات الله عليه» وقد نظم قصيدة في مدح آل البيت تعتبر من أحسن الشعراء وأسنى المدائح، قصد بها أبا علي بن موسى الرضا بخراسان فأعطاه عشرة آلاف درهم، وخلع عليه بردة من ثيابه فسمع بذلك أهل بلدة قم «وهي بين خراسان والعراق» فقصدوا دعبلا وعرضوا عليه أن يبيعهم هذا الثوب بثلاثين ألف درهم فأبى فألحوا عليه ولكنه أمعن في الإباء، ففكروا في أن يأخذوه غصبا، عندئذ اضطر إلى إجابتهم إلى ما طلبوا على أن يعطوه كمًّا يضعه في كفنه. وقد قيل إنه كتب هذه القصيدة في ثوب وأحرم فيه وأوصى أن يكون في أكفانه. قال ياقوت: «ونسخ هذه القصيدة مختلفة في بعضها زيادات يظن أنها

---

(١) الأغاني جـ ١٨/ ٢٩.

(٢) الأغاني جـ ١٨/ ٣٧.

مصنوعة الحقها بها أناس من الشيعة، وإنا موردون هنا ما صح منها. قال:

مَـدَارِسُ آياتٍ خَلَعـت مـن تِـلاَوةٍ ... ومنـــزلُ وحـــيٍ مُقْفِــرُ العَرصـــات
لآلِ رَسـولِ اللهِ بالخَيْــفِ مــن مِـنًى ... وبالـــرُّكْنِ والتَّعْريـــف والجَمَـــراتِ
ديارُ علـــيٍ والحســـين وجعفــــرٍ ... وحمـزةَ والسَّـجادِ [1] ذى الثفنـاتِ
ديارٌ عفاهــا كــل جَــوْنٍ مُبــاكرٍ ... ولم تَعْـــفُ لــــلأَيامِ والسَّـــنَواتِ
قِفَا نسألِ الدارَ التي خَفَّ أَهْلها ... مـتى عهـدُها بالصَّـوْمِ والصَّـلواتِ
وأينَ الأولىَ شَطَّتْ بِهم غُرْبَةُ النَّوى ... أَفــانِينَ فِي الآفــاقِ [2] مُفْتَرِقــاتِ
هـمُ أهـلُ ميراثِ النـبيِّ إذا اعتَـزَوْا ... وهُــمْ خــيرُ قـاداتٍ وخـيرُ حُمـاةِ
ومـا النـاسُ إلا حاسِـدٌ ومُكـذِّب ... ومضْـــطَغِنٌ ذو إحْنَـــةٍ وتِـــراتِ
إذا ذَكَــروا قَتْلَــى بِبَــدْرٍ وخَيْــبَرٍ ... ويـــوم حُنـــينٍ أَسْـــبَلُوا العَـــبَرَاتِ
قبــورٌ بكُوفــاتٍ وأخْــرَى بِطَيْبَــةٍ ... وأُخْــرَى بفـــخّ نَالهَــا صَـــلواتي
وقـــبرٌ ببغــدادٍ لِـــنَفْسٍ زَكِيَّـــةٍ ... تضـــمَّنهَا الـــرَّحْمَنُ فِي الغَرُفـــاتِ
فأَمَّـا المُصِـمَّاتُ الـتي لسْـتُ بالغـاً ... مبالِغَهــا مِـــنّي بكُنْـــهِ صِـــفاتِ
إلى الحشْـرِ حـتى يبْعَـثَ اللهُ قائِمـاً ... يُفَـــرِّج منهـــا الهـــمَّ والكُـــرُباتِ
نفوسٌ لدى النَهْرَين من أرضِ كربَلا ... مُعَرِّسُـــهم فيهـــا بِشَـــطِّ فُـــرَاتِ
تَقَسَّـمَهُمْ رَيْـبُ الزمَـانِ كمـا تَـرىَ ... لُهُـــمْ عُمْـــرَةٌ مَغْشِـــيَّةُ الحُجُـــرَاتِ
سِـوى أَنَّ مِـنْهُمْ بالمدِينَـةِ عُصْـبَةً ... مَـدى الـدَّهْر أنْضَـاءً عـن الأَزَمـات
قليلـــةُ زُوَّارٍ سِـــوى بعـــضِ زُورٍ ... مــن الضِّــبْع والعِقْبَــانِ والرَّخَمـاتِ
لَهُــمْ كــلَّ حــينٍ نومــةٌ بمضــاجعٍ ... لهُـــمْ فِي نَـــواحِي الأرضِ مُخْتَلِفـــاتِ
وقـد كـان مـنهمْ بالحجـازِ وأهلِهـا ... مغَـاويرُ [3] يُخْتَـارُوْنَ فِي السَّـرَواتِ

([1])هو علي بن عبد الله بن العباس سمي بذلك لكثرة السجود يريد أن ركبتيه تأثرتا بالسجود.

([2])شطت بعدت وأفانين حال مما قبله.

([3])مغاوير جمع مغوار: المقاتل الكثير الغارات.

تنكّبُ لأَوَاءُ (1) السّنين جوارَهُم ... فلا تصطلهم جَمْرَةُ الجَمَراتِ
إذا وَرَدوا خَيلا تَشَمَّسَ بالقَنا ... مَساعِرُ جَمْرِ الموتِ والغَمَراتِ
وإن فَخَرُوا يوماً أتَوْا بمُحَمّدٍ ... وجبريلَ والفرقانِ ذي السُّورَاتِ
مَلامكَ في أَهْلِ النبيّ فإنَّهم ... أَحِبَّاي ما عاشُوا وأهلُ ثِقَاتِي
تَخَيَّرْتُهُمْ رشُدًا لأَمْرِي فإنَّهُم ... علَى كُلِّ حالٍ خِيرَةُ الخِيرَاتِ
فيارَب زِدْنِي من يَقِينِي بصيرةً ... وزِدْ حُبَّهُمْ يارَبِّ في حَسَنَاتِي
بنَفْسِي أَنْتُمْ مِنْ كهُولٍ وفِتْيَةٍ ... لِفَكِّ عُناةٍ أو لِحَمْلِ دِيَاتِ
أُحِبُّ قصِيَّ الرَّحم من أَجْلِ حبِّكم ... وأَهْجُر فيكم أُسْرَتي وَبنَاتِي
وأَكتُم حُبّيكم مَخَافَةَ كاشِحٍ ... عنيدٍ لأهلِ الحقّ غير مُوَاتِ
لقد حَفَّتْ الأَيامُ حَوْلي بَشرِّها ... وإنّي لأَرجُوُ الأَ مْن بعد وفَاتِي
أرَى فيئهم في غيرهم مُتَقَسّماً ... وأَيْدِيهمُ من فيْئهم صَفِراتِ
فآلُ رَسولِ اللهِ نُحْفٌ جُسومُهم ... وآلُ زِيادٍ حُفَّلُ (2) القَصَراتِ
بناتُ زِيادٍ في القُصُورِ مَصُونَة ... وآلُ رسولِ اللهِ في الفَلَواتِ
إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى أَهْلِ وِتْرهم ... أَكُفَّا عن الأوتَارِ مُنْقَبِضاتِ
فَلَوْلا الذي أرجوهُ في اليومِ أوْغدٍ ... لَقَطَّع قلبي إثْرَهُمْ حَسَرَاتِي

خروج إمام لا محالةَ خارج (3) ... يقومُ على اسمِ اللهِ والبَرَكاتِ
يُمَيِّزُ فينا كلَ حقٍ وباطلٍ ... ويَجْزِي على النَّعْمَاءِ والنَّقِمَاتَ
شأقْصُرُ نفسي جاهِدا عَن جِدَالهم ... كَفَانِيَ ما أَلْقَى من العَبَرَاتِ
فيا نَفْس طِيبِي ويا نفْس أبشِري ... فغيرُ بعيدٍ كلُّ ما هُوآتِ
فإن قَرَّبَ الرحمنُ من تلكَ مُدَّتي ... وأَخَّرَ من عُمْري لطُولِ حياتِي
شُفِيتُ وام أتْرُكْ لنَفْسِي رَزِيَّةً ... ورَوّيْتُ منهم مُنهَلي وقنَاتِي

---

(1) اللأواء: الشدة وضيق العيش.

(2) جمع قصرة وهي العنق.

(3) خارج صفة لامام وخبر لا محذوف تقديره واقع.

أحاول نَقْل الشَّمسِ من مُسْتَقَرّهَا ... وأُسْمِعُ أحْجَارًا من الصَّلدَاتِ

فمن عارفٍ لم ينْتَفِعْ ومُعَاندٍ ... يَميلُ مع الأهواءِ والشُّبُهات

قُصَارَاى منهم أنْ أُموتَ بغُصَّةٍ ... تَرَدَّدُ بين الصَّدْرِ واللَّهوَاتِ

كأنك بالأضلاعِ قد ضَاقَ رَحْبها ... لِما ضُمّنَت من شِدَّةِ الزَّفَرَات

فأنت تلمح في هذه القصيدة أن دعبلا كان يرى رأي كثير والسيد الحميرى من أن هناك إماما سيرجع ويقوم على اسم الله والبركات، يزيل ما وقع على العلويين من ظلم واضطهاد، وينتقم من أعدائهم شر انتقام. وكان دعبل يعلل نفسه بهذه الآمال ويعزيها ويواسيها بخروج إمام لا محالة خارج. ولم يسلك دعيل سبيل كثيّر والسيد الحميرى في هجاء الصحابة وسبهم، بل اكتفى بمدح العلويين والطعن في أعدائهم من أمويين وعباسيين. وقد بكى علي بن موسى الرضا بكاء شديدا حينما أنشده دعبل هذه القصيدة، وتجلى حزنه وجزعه، وارتفع عويل النساء وصياحهم فكان من هذا منظر مؤثر. وفي هذه القصيدة يقول أبو الفرج[1]«وقصيدته مدارس آيات خلت من تلاوة. من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام». وقال ياقوت (قصيدته التائية في أهل البيت من أحسن الشعر وفاخر المدائح).

وفاته: وظل دعبل طول حياته مرهوب اللسان، خائفا من هجائه للخلفاء، فقضى دهره كله هاربا متواريا.. كان يقول «أنا أحكل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحدا يصلبني عليها».

مات سنة ٢٤٦هـ.

(١) الأغاني جـ ٢٩/١٨.

(٦) ابن الرومي

هو علي بن العباس. ولد ببغداد ٢٢١ هـ وتوفى بها عام ٢٨٤ هـ فأدرك ثمانية خلفاء من بني العباس. وكانت الخلافة العباسية في تلك الأيام قد سقطت مكانتها إلى الحضيض، وزالت هيبتها وانعدم نفوذ الخلفاء وانحلت الأمبراطورية الإسلامية وقامت على أنقاضها دول مستقلة.

شاعريته: كان ابن الرومي قوي الشاعرية، يغوص على المعاني غوصا ويأتي بما يثير الإعجاب في النفوس. وقد ترك شعراً كثير جمع في ديوان ضخم.

أخلاقه وصفاته: كان ابن الرومي يتطير ويفرط في التطير وقد عرف أصحابه منه ذلك فركبوه بالدعابة والسخرية. وكان ابن الرومي جريئاً جداً في هجاء الأمراء والوزراء والعظماء، لم يسلم من لسانه أحد من معاصريه. وبينه وبين دعبل شبه كبير في هذا الباب.

ثقافته وتهذيبه: أخذ ابن الرومي بقسط وافر من العلوم والمعارف فألم بالفلسفة إلماما جيدا ظهر أثره في شعره كما ألم بقسط وافر من الشعر وحفظ القرآن في صباه، ووعي قدرا وافرا من التاريخ والأدب.

تشيعه: كان ابن الرومي محبا لآل علي. وقد ورث هذا الحب عن أبويه، فقد كانت أمه من أصل فارسي والفرس بطبيعتهم ميالون إلى آل علي. وسمى عليا وهو أحب اسم عند الشيعة. ولذلك نشأ على ما نشأ عليه أبواه من ولاء وإخلاص لآل البيت وكان غاضبا على العباسيين، ساخطاً عليهم، يتمنى زوالهم ويشتهي ذهابهم، ويؤمل أن تقوم على أنقاض الخلافة العباسية خلافة علوية. وله قصيدة جيمية يرثى بها يحيى بن عمر بن حسين بن علي. وكان قد ثار في وجه العباسيين، بعد أن حرمه العباسيون من المال حتى أملق إملاقا شديدا وعانى شظف العيش وقسوة الفقر. وكان يحيى محبوبا من الناس لما امتاز به من صفات

حميدة، وخلال كريمة. وقد هزم وقتل وحملت رأسه إلى بغداد وعلقت على عمود، فلما رآها البغداديون هموا بالثورة فبادر أولو الأمر بإنزالها، وقد ثار خاطر ابن الرومي وعظم ألمه لما يقع على آل البيت من نكبات جسام من حين إلى حين، فجادت قريحته بقصيدة في منتهى القوة والروعة نذكر منها:

أمامَك فانظرْ أيَّ نهجيْكَ تَنْهَجُ ... طريقَان شتَّى، مستقيمٌ وأعوجُ
أَلاَ أَيُّهذَا الناس طَالَ ضريرُكم ... بآلِ رسولِ اللهِ فاخَشَوْا وارَتَجُوا
أكلَّ أوانٍ للنبيِّ محمَّد ... قتيلٌ زكيٌّ بالدماء مُضَرَّجُ
تَبيعون فيه الدينَ شَرَّ أئمةٍ ... فللهِ دينُ اللهِ قد كادَ يَمْرَجُ
بني المصطفَى! كم يأكلُ الناسُ شِلْوكُم ... لِبَلْواكُمُ- عما قليلٍ- مُفرَّجُ
أمَا فيهمُ راعٍ لحقِّ نبيِّهِ ... ولا خائفٌ من ربه يَتَحَرَّجُ
ألا خابَ من أنساه منكم نصيبَهُ ... متاعٌ من الدنيا قليلٌ وزِبْرِجُ
أبَعْدَ المكنَّى بالحسين شهيدكم ... تضيءُ مصابيحُ السماءِ فَتسْرَجُ
وكيفَ نُبَكيَّ فائزاً عند رَبِّه ... له في جِنانِ الخلدِ عيشٌ فُخَرْفَجُ
وقد نال في الدنيا سَناءَ وصيةٍ ... وَقامَ مَقَاماً لَمْ يَقُمْهُ مُزَلَّجُ
فإنْ لا يكنْ حَيًّا لِدُنْيَا فإنَّه ... لَدَى اللهِ حَي في الجِنَانُ مُزَوَّجُ
وكنا نُرَجِّيهِ لِكَشْفِ عَمَايةٍ ... بأمثالِهِ أمثالُها تَتَبَلَّجُ
أَبيتُ إذَا نامَ الخَلِيُّ كأنَّما ... تُبَطِّنُ أَجْفَانِي سيالٌ وعَوْسَجُ
أ يحْيَىَ العُلَى لِذِكراكَ لهفةٌ ... يُباشِرُ مَكْواهَا الفؤادُ فَيَنْضجُ
أحين تراءتكَ العيونُ جلاءَها ... وأقذاءَها أضحتْ مراثيكَ تُنْسجَ
بنفْسِي وإن فاتَ الفداءُ بكَ الردَى ... محاسُنك التي تمج فَتَنْهَجُ
لمن تستَجِدُّ الأرضُ بعدَك زينةً ... فتصبح في أثوابِها تَتَبرَّجُ
سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ ... عليكَ وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ
ولا بَرحَ القاع الذي أنَتَ جارُه ... يرف عليك الأقْحُوانُ المُفَلَّجُ

ومنها في الطعن على العباسيين:

اجْنُوا بني العباسِ من شنآنِكُم وأَوكوا على ما في العُباب وأشْرجُوا
وَخلوا ولاةَ السوءِ منكم وغيهم فأحْرِ بِهِم أنَ يغْرَقُوا حيثُ لَجَّجُوا
نظارِ لكم أن تُرجِع الحقَّ راجَعٌ إلى أهلهِ يوماً فَتشْجُوا كما شَجُوا
على حينَ لا عذْرَى لمعتذِريكم ولا لكُم من حجةِ اللهِ مَخَرجُ
فلا تَلقَحُوا الآن الضغائنَ بينكم وبينَهمُ إنَّ اللواقِح تنْتِجُ
غُرِرْتم لأنْ صدَّقْتُمُ أن حالةً تدُوم لكم، والدهرُ لو نَان أَخْرَجُ
لعَلَّ لهُم في مُنْطَوَى الغيبِ ثائراً سَيَسْمُو لَكم والصبحُ في الليل مُولِجُ
بِمَجْرٍ تَضِيقُ الأرضُ مِنْ زَفَراتِه له زجْلٌ يَنْفي الوحوشَ وهَزْمَجُ
إذا شِيمَ بالأَبصار أبرق بيضُه بوارقَ لا يطيعهن المُجَمَجُ
يؤيده ركنان ثَبْتَانِ، رجلة وخيلٌ كإرسالِ الجَرادِ وأَوْشَجُ
عليها رجالٌ كالليوثِ بسألةً بأمثالِها يُثْنَى الأَبِيُّ فينْعَج
تَدانوا فما للنفع فيهم خصاصةٌ تنفسه عن خيلهم حينَ تَرْهجُ
فيدرك ثأرَ اللهِ أنصارُ دينهِ ولله أوسٌ آخرون وخَزْرجُ
ويَقْضي إمامُ الحقّ فيكم قضاءَه تماماً وما كُل الحوامِل تَخْدَجُ
وتظْعَنُ خوف السَّبْيِ بعَدَ إقامةٍ ظعائنُ لم يُضْرَزْ عليهمَّ هَوْدَجُ

ومنهاظك

أَ فِي الحقّ يمسوُ اخماصاً، وأنتُمُ تَكادُ أَخوكم بطنُهُ يتَبَعَّجُ
تمشون مُخْتَلِين في حُجُراتِكم ثقالَ الخُطَى أكفا لُكم تتَرجْرَجُ
وليدُهم بادِى الضّوى ووليدُكم من الريف رَيَّان العظامِ خَدَلَّجُ
تذودونَهم عن حَوْضِهم بسيوفِكم ويشرَعُ فيه أَرْتَبِيلُ وأَبْلَجُ
فقد ألجتْهم خِيفَةَ القتلِ عنكُمُ وبالقَوْمِ حاجٌ في الحيازِم حُوَّج

ومنها:

أبى الله إلا أن يَطِيبـــوا وَتَخْبُثُـــوا وأن يَسْـبِقُوا بالصـالحاتِ وَيَفْلجُـوا
وإن كنـــتمُ مـــنهم وكـــان أبـــوكُمُ أباهُـم فـإن الصَّـفْو بالرّنْـق يُمْـزِجّ
فلـن تَعْـدَموا مـا حنَّـتْ النيـبُ فْتنَـةً تحشـى كمـا حشـى الحريـقُ المـؤَرَّحُ
وقـد بجـأت لـو تُزْجَـرُون بريحهـا بوائجهـا مـن كـل أَوْبٍ تَبَـوَّحُ

فأنت ترى في هذه القصيدة الطويلة أن ابن الرومي عرض نفسه لانتقام بني العباس ومن مالأهم من أمراء ووزراء وقواد، لم يخش صاحبنا بطشهم ولا كيدهم وراح يعرض بآل العباس تعريضا شديدا، وينذرهم عاقبة البغي والعدوان بقيام رجل من آل البيت على رأس جيش قوي، يستطيع أن يدمر الخلافة العباسية تدميرا تاما وأن يحكم الناس بالعدل والإحسان ويقضي على الفحشاء والمنكر والبغي. وذكر أن هذه الثورة قد ظهرت بوادرها وأصبح زوال العباسيين قاب قوسين أو أدنى.

وقد تشيع ابن الرومي في غير هذه القصيدة، مما لا داعي لذكره وقد كان صاحبنا معتدلا في تشيعه فلن تجد له كلمة نابية في حق أحد من الصحابة.

(٧) المفجع البصري

هو مُحَّد بن عبيد الله الكاتب المعروف بالمفجَّع البصري. ويكنى أبا عبد الله. قال ابن النديم في كتاب الفهرست[١] إنه «لقي ثعلبا وأخذ عنه وعن غيره. وكان شاعرا شيعيا وله قصيدة يسميها بالأشباه يمدح فيها عليا عليه السلام» وقال صاحب يتيمة الدهر «والمفجع البصري صاحب ابن دريد والقائم مقامه في التأليف والإملاء. حدث ابن نصر قال، حدثني بعض المشايخ البصريين

(١) ص ١٢٣.

قال: كان المفجع وشمال يتهاجيان وكان شمال سنئا والمفجع شيعيا» ثم أورد الثعالبي مقطوعة للمفجع في هجاء شمال أعرضت عن ذكرها لقبح ما فيها. وقد هجاه أحد الشعراء بقوله.

إن المفجـــــــــع ويلـــــــــه	شـــــر الأوائـــــل والأواخـــــر
ومـــــــن النـــــــوادر أنـــــه	يملـــي علـــى النـــاس النـــوادر

وقد لقب بالمفجع لبيت قاله.

شاعريته: قال المرزباني «هو شاعر مكثر عالم أديب» وقال الثعالبي «وأما شعره فقليل كثير الحلاوة يكاد يقطر منه ماء الظرف» وقال عنه كذلك إنه «شاعر البصرة وأديبها. وكان يجلس في الجامع بالبصرة فيكتب عنه ويقرأ عليه الشعر واللغة والمصنفات».

مدحه لآل البيت: سمع المفجع حديثا رواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في محفل من أصحابه: إن تنظروا إلى آدم في علمه، ونوح في همه، وإبراهيم في خلقه، وموسى في مناجاته، وعيسى في سنه، ومحمّد في هديه وحلمه، فانظروا إلى هذا المقبل» فتطاول الناس فإذا هو علي بن أبي طالب. فأرورد المفجع ذلك في قصيدة وضمنها مناقب كثيرة تعزي إلى علي. قال:

أيُّهـــا اللائِمـــي لحُـــبّي عَلِيًّـــا	قُـــمْ ذَمِيمـــا إلى الجَحِـــيمِ خَـــزِيًّا
أبِخَـــيْرِ الأَنَامِ عَرَّضْـــتَ لا زِلْـــ	ـــتَ مَـــذُودًا عـــن الهُـــدَى مَـــزْوِيًّا
أَشْـــبَهَ الأنبيـــاءَ كهـــلاً وزَوْلاً	وفَطِيمـــــاً ورَاضـــــعًا وغَـــــذِيًّا
كـــان في علْمِـــه كـــآدمَ إذ عُلْـــ	ـــلِمَ شَـــرْحَ الأسمـــاءِ والمكْنِيَّـــا
وكنـــوح نجـــى مـــن الهَـــلاكِ مـــن سُيـــ	يـــرَ في الفلـــكِ إذ عَـــلاَ الجُـــودِيَّا
وجَفـــا في رِضـــا الإلـــهِ أَباهُ	واجْتَـــــواهُ وعـــــدَّه أَجْنَبِيًّـــــا

كـــاعتزالِ الخليـــل آزرَ في الــــ لـــــهِ وهجرانِـــــه أباهُ مَلِيَّـــا
ودعـــا قومَـــه فـــآمَنِ لـــوطٌ أقــربُ النـــاسِ منـــه تَرَحُّمــا وَرِيَّا
وعلـــيٌّ لمـــا دَعـــاه أَخُـــوه ســـبقَ الحاضِـــرينَ والبّـــدّوِيَّا
ولـــه مـــن أَبِيـــه ذي الأَيْـــدِ إسمـــا عيـلَ شـبهُ مـا كـان عَـنَّى حَفِيَّـا
إنَّـــه عـــاونَ الخليـــلَ علـــى الكَعْـــ بَـــةِ إذ شَـــادَ ركنَهـــا المبْنِيَّـــا
ولقـد عـاونَ الوصِـيُّ حبيـبَ الـ لَّــهِ إذ يغْســلانِ منهــا الصَّــفِيَّا
أَمْ حَمَـلَ النَّـبِيَّ مـي يَقطـعَ الأصـ نامَ مــن ســطحِها المثُــولَ الحُبَيَّـا
فحنـــاهُ ثقـــلُ النُّبُـــوَّةِ حـــتى كـــادَ ينَـــآد تحتَـــه مَثْنِيَّـــا
أرتَقـــى منكـــبَ النـــبيّ علـــيٌّ صِـــنْوُهُ مـــا أَجَـــلَّ ذا المرقِيَّـــا
فأَحـاطَ اللثـامَ عـن ظـاهِر الكعـ بـةِ يَنْفِـى الرَّجَـاسَ عنهـا نَفِيَّـا
ولـو أن الوصِـيِّص حـاول مَـسَّ النـ جْـــمِ بالكَـــفِّ لم تَجِـــدْهُ قَصِـــيًّا
أفهــلْ تَعْرِفُــونَ غــيرَ علِــيّ وابنِـــه اســـتَرْحَلَ النـــبيّ مَطِيَّـــا

أورد ياقوت[١] هذه القصيدة وقال «وشعر المفجع كثير حسن».

***

وقد مدح بعض العلويين المعاصرين له بكثير من القصائد الجيدة تذكر منها قصيدته التي مدخ بها أبا الحسن مُحَّد بن عبد الوهاب الزينبي وهي:

للـــزْينَبيّ علـــى جَلالـــةِ قـــدرِه خُلُــقٌ كطعــمِ المـاءِ غـيرِ مُرّنَّــدِ
وشـهامةٌ تُقْصِـى الليـوث إذا سَـطا ونَــدًى يُغَــرِّقُ كــلَّ بَحْــرٍ مُزْبِــدِ
يحتَـــلُّ بَيْتًـــا في ذُؤَابَـــةِ هاشـــمٍ طالَـــتْ دَعَائِمُـــهِ مَحَـــلَّ الفرقـــدِ
حُـــرٌّ يَـــرْوحُ المُسْـــتَمِيحُ ويَغْتَـــدِى بمواهـــبٍ منـــه تَـــرُوحُ وَتَغْتَـــدِى
فـــإذا تَخَيَّـــفَ مالـــه وعطـــاؤه في يومـــه بَهَـــكَ البَقِيَّـــة في غَـــدِ

(١) معجم الأدباء جـ ١٧/ ٢٠٢.

بِضِـــيَاءِ سُـــنَّتِهِ المكـــارِمُ تَهْتَـــدِى　　　وبجـود راحتـه السـحائب تَقْتَـدِى
مقــدار مــا بينــب ومــا بــين الغــني　　　مقــدارُ مــا بيــني وبــين المِرْبَــدِ

ولم يصل إلينا من أخبار الْمُفَجَّع ما يفيد تعرضه للصحابة كما فعل غيره من شعراء الشيعة. والظاهر أنه لم يكن غاليا في التشيع ولا مُحَّمقا. وقد ضاع شعره حتى لا نكاد نعرف منه شيئا سوى ما تقدم.

وفاته: وكانت وفاة المفجع البصري في سنة ٣٢٧هـ.

(٨) الشريف الرضى

هو أبو الحسن بن الظاهر أَبى أحمد الحسين ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب.

مولده: ولد الشريف الرضي عام ٣٦١هـ وعاش خمسة وأربعين عاما أدرك في خلالها ثلاثة خلفاء من بني العباس هم المطيع لله والطائع لله والقادر بالله وفي أيام هذا الخليفة توفى شاعرنا.

عصره: كان عصر الشريف الرضي عصر فتن واضطرابات ومعارك كثيرة تقع بين الأتراك والديلم في بغداد كان يترتب عليها أن تسفك دماء، وتخرب أحياء آهلة بالسكان، ويتعرض الناس للهلاك، وتنتشر اللصوصية، وتصبح المحال التجارية عرضة للنهب والسلب، والدور للحرق والتدمير ولم يكن للخليفة العباسي أي نفوذ خارج قصره. وقد أصبح الحكام الحقيقيون للعراق من آل بويه.

ثقافته وتهذيبه: بدأ الشريف الرضى ثقافته بأن قرأ القرآن على أبي اسحاق إبراهيم الطبري وهو حدث. ثم أعاد حفظه بعد أن تخطى هذه السن. وكانت أمه تعنى بشؤون أبنائها عناية فائقة، وتهتم بتثقيفهم وتهذيبهم منذ

حداثتهم فقد روى ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة أنها دخلت يوما المسجد إلى أبي عبد الله مُحَمَّد بن النعمان الفقيه الإمامي وحولها جواريها وبين يديها أبناها الرضي والمرتضى فقام إليها وسلم فقالت: أيها الشيخ هذا ولداي قد أحضرتهما إليك لتعلمهما الفقه فتولى تعليمهما، وذكر ابن جنى أن الشريف الرضى أحضر إلى ابن السيرافي النحوي المشهور فتلقى عنه علم النحو.

تصرفه وعمله: ولي الشريف الرضي نقابة الطالبيين وهي رياسة آل البيت العلوي والحكم فيهم أجمعين مستقلين عن طبقات الأمة الإسلامية. كان نقيباً في بغداد أولا ثم جعله بنو بويه نقيباً للطالبيين في بلاد فارس بأجمعها. وكان يضم إلى ذلك العمل النظر في المظالم والحج بالناس. وهذه الأعمال كان يتولاها والده الطاهر ثم تنازل عنها لابنه الرضي، لأن هذا كان يمني نفسه بالخلافة، وكان يفكر كثيراً في سبيل تحقيق هذه الأمنية فخشى والده عليه شر العباسيين وبطشهم، فأسند إليه هذه الأعمال ليشغله بها عن التفكير في موضوع الخلافة، وليسكن خاطره الثائر ويخفف من حدته وغليانه. قال في ذلك:

وِلِيَ النقابـــــةَ خـــــالُ أمـــــيّ قبـــــــلُ ثم أَبِي وَجَـــــــدِّي
ووليتهـــــا طِفْـــــلاً فهـــــلْ مَجْـــــدٌ يُعَـــــدَّدُ مثـــــلُ مُجْـــــدِي

ولكنه يرم بها فردها إلى والده الذي توفى عام ٤٠٠ هـ فاضطر صاحبنا إلى القيام بأعبائها وبقى كذلك حتى مات سنة ٤٠٦ هـ فتولاها من بعده أخوه المرتضى.

وقد اتخذ الشريف المرتضى في حياته داراً أسماها دار العلم، وكان يجتمع بهذه الدار طلبة العلم الملازمون له.

وقد وضع كثيراً من الكتب والرسائل كما أنه بذل مجهودا كبيرا في جمع ما

حواه كتاب «نهج البلاغة».

مذهبه: كان الشريف الرضى يدين بمذهب الإمامية الاثنا عشرية الذين يرون أن الخلافة في أبناء الحسين.

آماله وأمانيه: كان الشريف الرضى يمني نفسه بمنصب الخلافة، فلم تهدأ له نفس، ولم يسكن له خاطر، ولم تصف له الحياة قط بل كان في تفكير متواصل، وهم وقلق وحزن شديد، تارة يرى الأمل أمامه مقبلا وتارة يرى ظلمات اليأس مخيمة في سماء تفكيره.

ومما شجع الشريف الرضي على الاسترسال في آماله ما رآه من ضعف الخلافة العباسية ضعفاً تاما، وما شاهده من انحلالها وذهاب نفوذها وسلطانها. ومما شجعه كذلك أن آل بويه كانوا من غلاة الشيعة الذين يدينون بالولاء لآل علي. ويذكر المؤرخون أن الملوك البويهيين كانوا يحرضون النساء على الخروج وعمل المناحات والبكاء والعويل في شوارع بغداد وطرقاتها في مثل اليوم الذي قتل فيه الجسين من كل عام وكان الشريف الرضي يرى ذلك بعيني رأسه فيقوى أمله ويزداد تعلقه بالخلافة وجلالها. وكان له أنصار كثيرون منهم أبو اسحق الصابيء الذي كان يزعم أن طالع صاحبنا يدل على أنه سيرقى حتما إلى هذا المنصب الرفيع. وكانت تدور بينهما قصائد بهذا المعنى، فمن ذلك قول إسحاق الصابيء وقد بعث بها إلى الشريف الرضى:

أبا حَســن لي في الرِّجــالِ فِراســة	تَعَــوَّدْتُ منهــا أن تَقــولَ فَتصْــدُقا
وقــد خَبرَتــني عنــك أنــك ماجــدٌ	سَــترقى مــن العليــاءِ أبعــد مُرْتَقَــى
فوَّفيْتــكَ التعظــيمَ قبــل أوانــهِ	وقُلْــتُ أطــالَ اللهُ للسَّــيِّد البَقــا
وأضــمرت منــه لفظــةً لم أَبْــح بهــا	إلى أن أرَى إطلاقَهــا لي مطلقَــا
فإن عِشْت أو إن مِتُّ فاذكر بشَارَتي	وأوجــب بهــا حَقــاً عَلَيْــكَ مُحَقَّقَــا

وكُـنْ لِيَ في الأولاد والأهـل حافظـاً إذا ما اطمأن الجنْبُ في موضع البقَا

فأجابه الشريف الرضى بقوله:

سَـننتَ لهـذا الـرُّمح غـَرْبا مُـذَلَّقا وأجْرَيــتَ في ذا الهُنْــدُواني رَوْنقَــا
وَســوَّمْتَ ذا الطـرفَ الجـوادَ وإنمـا شَـرَعْتَ لـه نهجـاً فَخَـبَّ وأعنقَـا
لـئن بَرِقَــتْ مــنى مخَايــلُ عــارضٍ لعينيــك يقضــي أن يجـود ويغـدقا
فلـيسَ بسـاقٍ قبـلَ ربَعـك مرْبعـا ولـيس بـراق قبـل جُـودِك مُرْتَقـى

***

ثم إن ملوك آل بويه كانوا يمنونه بها ويعدونه بقرب صيرورتها إليه فلا عجب أن سيطر عليه حلم الخلافة، وملك عليه مشاعره وأصبح شبحها ماثلا أمامه في القومة والقعدة، والمنام واليقظة، وفي كل مكان يذهب إليه قال:

أرى نفســي تَتــوقُ إلى النُّجُــوم ســأحْمِلها علــى الخَطَــرِ العظــيم
ولي أمَــلٌ كَصَــدْرِ الـرُّمحِ مـاض سِــوى أن الليــالِيَ مــن خُصــومِي
ومــــالي هِمَّــــةٌ إلا المعــــالي وذَبُّ الضَّــيْم عَــن نَسَــبٍ صــميم

***

لماذ فشل؟: كان الشريف الرضى ينتظر من البويهيين أن يساعدوه في الوصول إلى منصب الخلافة، ولكن هؤلاء كانوا ينظرون إلى مصالحهم الشخصية. ومصلحتهم كانت تقضي بوجود خلافة أسمية لا حول لها ولا قوة ولا جاه ولا سلطان. وهذا كان متوفرا في خلافة بني العباس الذين كانوا يُوَلَّوْنَ بأمر البويهيين ولم يكن لهم من مظاهر الحكم غير ذكر أسمائهم في الخطبة. وكان آل بويه يخشون قيام خلافة عربية قوية تقضي على حكمهم قضاء مبرما وتعيد مجد الامبراطورية الإسلامية كما كان أولا، لذلك لم يجد صاحبنا منهم عونا،

وقضى حياته يضاجع الأحلام.

يأسه وحزنه: لما رأى الشريف الرضي هذا الفشل العظيم الذي لحقه وأدرك أن أمنيته لا تتحقق أخذ منه اليأس كل مأخذ فطفق يبكي ينوح ويندب آماله الضائعة، قال:

وعـدْتَ يا دهـرُ شـيئاً بـتُّ أرقبـه ... ومـا أرى منـك إلا وَعـدَ عُرْقُـوب
وحاجـــةً أتقَاضَـــاها وتمْطُلـــني ... كأنَّهَـا حاجـةٌ في نفـس يَعْقُـوب
لأَتعِـــبَنَّ علـــى البيـــداءِ راحلـــةً ... والليـلُ بالـريح خفـاقُ الجلابيـب

لقد أخذ اليأس يسري في الرجل، وشاعت روح الكآبة والحزن في شعره قال:

مـا مقَـامي علـى الهـوانِ وعنـدي ... مِقْـــوَلٌ صـــارمٌ وأنْـــفٌ حَمِـــيُّ
وأبَاءٌ مُحَلِّـــقٌ بي عـــن الضَّـــيْمِ ... كمـــا رَاغَ طـــائِرٌ وَحْشِـــيُّ
أَيُّ عـــذرٍ لـــه إلى المجـــدِ إن ... ذلَّ في غِمِـــــده المَشْـــــرَفِيُّ
أحمـلُ الضـيمَ في بـلادِ الأعـادِي ... وبمصَـــر الخليفـــةُ العَلَـــوِيُّ
مـــن أبـــوه أبي ومـــولاه مـــولا ... يَ إذا ضَـــامَنِي البعيـــدُ القَصـــيُّ
لـــفَّ عِرْقِـــي بعرقِـــه ســـيدُ النَّـــا ... سِ جميعـــاً محمـــدٌ وعلـــيُّ
إن ذُلِّي بـــذَلِك الجـــوِّ عـــزٌّ ... وَ أوَامـــي بـــذلِك النَّقْـــعِ رِيٌّ
قـد يـذِلُّ العزيـزُ مـا لم يُشَـمِّر ... لا نِطـــلاقٍ وقـــد يُضـــام الأبِيُّ
إنَّ شـرًّا علـى إسـراعُ عزْمِـي ... في طـلابِ العُـلا وَحظِّـى بَطـيُّ
أَرْتَضِـى بالأذَى ولم يَقِـف العـزْ ... مُ قُصـوراً ولم تَعـز المطِـيُّ
كالـذي تَخْـبِطُ الظَّـلامَ وقـد أَقْ ... مَـرَ مـن خَلْفِـه النهـارُ المُضِـيُّ

قيل إن هذه الأبيات وصلت إلى يد الخليفة القادر بالله فغضب غضباً شديداً، وعقد مجلسا وأحضر فيه أبا الطاهر الموسوي والد الشريف الرضي وابنه المرتضى وجماعة من القضاة والشهود والفقهاء، وأبرز لهم أبيات الشريف السالفة الذكر. وتقدم حاجب الخليفة وقال للنقيب أبي أحمد (والد الرضى) قل لولدك: مُحَمَّد (الشريف الرضى) أي هو أن قد أقام عليه عندنا؟ وأي ذل أصابه في ملكنا؟ وما الذي يعمل معه صاحب مصر لو مضى إليه؟ أكان يصنع معه أكثر من صنيعنا؟ ألم نوله النقابة؟ ألم نوله المظالم؟ ألم نستخلفه على الحرمين والحجاز وجعلناه أمير الحج؟ فهل كان يحصل له من صاحب مصر أكثر من هذا؟ ما نظنه كان يكون– لو حصل عنده– إلا واحدا من أفتاء الطالبيين؟ فقال له النقيب أبو أحمد «أما هذا الشعر فمما لم نسمعه ولا رأيناه بخطه، ولا يبعد أن يكون بعض أعدائه نحلة إياه وعزاه له» فقال القادر «إن كان كذلك فليكتب الآن محضر بذلك يشهد فيه جميع من حضر المجلس منهم النقيب أبو أحمد (والد الشريف) وابنه المرتضى» وكان هذا المحضر بمثابة إقرار يتضمن قدحا في نسب العلويين حكام مصر في ذلك الحين. وحمل إلى الرضي ليوقعه، حمله إليه أبوه، فامتنع ولكنه أنكر الشعر واعترف كتابة بأنه ليس بشعره ولا يعرفه.

شاعريته: امتاز الشريف الرضي بشاعرية قوية جداً تتدفق تدفق المحيط. فإذا انطلق لسانه بالرثاء أتى بالقصائد الطويلة التي تزيد على المائة بيت ومعظمها مما يسيل العبرات، وإذا مدح أطال وأتى بما يرقص ممدوحيه وإذا افتخر أبدع وأجاد، وأتى في أبيات معدودة بما لا يتيسر لغيره أن يأتي به في قصيدة طويلة.

***

التشيع في شعره: ذكر الشريف الرضي كثيراً من مناقب علي وآل بيته في قصائد كثيرة ودافع عن حق العلويين في الحكم. ورثى الحسين بجملة قصائد رائعة إلى أبعد حدود الروعة. ومن تلك القصائد قوله:

هذى المنازلُ بالغَمِيم فنادها ... واسْكُبْ سَخِيَّ العين بعد جمادها
إن كان دينٌ للمعالم فاقضه ... أو مهجة عند الطلول ففادها
يا هَلْ تَبُلُّ من الغلِيلِ إليهمُ ... إشْرَافَةٌ للرَّكْبِ فَوْقَ نجادِها
نُؤْيٌ كَمنْعَطَف الحَنيَّة دُنَه ... سُحْمُ الخدودِ لَهُنَّ إرثُ رَمَادِها
وَمنَاطُ أطنابٍ ومَقْعَدُ فِتْيَةٍ ... تَخْبُو زناد الحيّ غَيْرَ زِنَادِها
ومَجَرُّ أَرسَانِ الجيادِ لغِلْمةٍ ... سَجَفُوا البُيُوتَ بِشَقْرِها وَورَادِها
ولقد حَبَسْتُ على الديارِ عصابةً ... مضمومةَ الأَيْدِى إلى أَكْبَادِها
حَسْرَى تُجَاوِبُ بالبُكاءِ عيونُها ... وتَعُطُّ[1] بالزَّفَراتِ في [2] أَبْرَادِها
وَقفُوا بها حتى كأنَّ مَطيَّهم ... كانَتْ قوائِمهُنَّ من أَوتَادِها
ثم انْثَنَتْ والدَّمْعُ ماء مَزَادِها ... ولواعجُ الأَشْجانِ من أَزْوادِها
من كل مُشتَمِلٍ حمايلَ رنةٍ ... قطرُ المدامعِ من حُلِّي نِجَادِها
حيتْكَ بل حيتْ طُلولَك ديمَةٌ ... يَشْفِى سَقِيمَ الرَّبعِ نَفْثُ عِهَادِها
وعدتْ عليكَ من الخمائلِ يَمْنَةٌ ... تَسْتام نافِقَةً على رُوَّادِها
هل تَطلُبون من النواظِر بعدكم ... شيْئاً سِوى عَبراتِها وسُهادِها
لم يَبْقَ ذخرٌ للمُدافِع عنكُمُ ... كلاً ولا عَينٌ جَرى لِرُقَادِها
شَغَلَ الدُّمُوعَ عن الديار بُكاؤُنا ... لبُكاءِ فاطمةٍ على أَولادَها
لم يخلِفوها في الشَّهيدِ وقد رَأى ... دَمْعَ الفراتِ يُزَادُ عن أَوْرَادِها
أَترى دَرَتْ أن الحُسَيْنَ طريدةً ... لقَنَا بَني الطَرَدَاءِ عندَ ولادِها

(١) تشق.

(٢) جمع برد.

كانتْ مآتمُ بالعراقِ تَعُدُّها ... أُمَوِيّةٌ بالشَّامِ من أَعْيَادِها
ما رَاَقَبَتْ غَضَبَ النبيِّ وقَد غّدا ... زرعُ النَّبيِ مَظَنَّةً لِحَصَادِها
باعَتْ بصائرَ دسنِها بِضَلالِها ... وشَرَتْ مَعاطِبَ غَيِّها بِرَشَادِها
جعلَت رسولَ الله من خصمائِها ... فلبئْسَ ما ذّخَرتْ ليومِ مَعادِها
نسلُ النبي على صعابِ مَطيِّها ... ودمُ النبي على رؤُوسِ صِعَادِها
والمُقْتَفَاهُ لِعُصَبةٍ عَلَوِيَّةٍ ... تَبعتْ أُمَيةَ بَعْدَ عِزِّ قِيَادِها
جعلَت عُرانَ الذُّل في آنافِها ... وعُلاطَ وَسْمِ الضَّيْمِ في أجْيَادِهَا
زَعمَتْ بأَنَّ الدينَ سوَّغَ قتْلَها ... أوَليسَ هذَا الديُن عَنْ أَجْدادِها
طلبت تراثَ الجاهليةِ عندَها ... وشَفَت قديمَ الغِلِّ من أَحْقَادِها
واستأثَرتْ بالأَمرِ عن غيَّابِها ... وقَضَت بما شَاءَت على شُهَّادِها
اللهُ سابِقُكم إلى أَرْوَاحِها ... وكسبتُم الآثَامَ في أَجْسادِها
إن قُوِّضَتْ تلكَ القِبابُ فإنَّما ... خَرَّتْ عمادُ الدينِ قبلَ عِمادِها
إن الخلافَة أصبحتْ مَزْوِيَّةً ... عن شَعْبِها بِبَيَاضِها وسَوَادِها
طَمَستْ منابرَها علوجُ أُمَيَّةٍ ... تَنْزو ذشابُهم على أَعْوَادِها
هي صفوةُ اللهِ التي أَوْحى بِها ... وقَضَى أوامرَه إلى أَمْجادِها
أخَذَتْ بأَطرافِ الفَخَارِ فعاذِرٌ ... أن يُصبحَ الثَّقَلانِ من حُسَّادِها
الزُّهْد والأحلامُ في فُتَّاكِها ... والفَتْكُ لولا الله في زُهَّادِها
عَصَبٌ يُقَمَّطُ بالنَجادِ وليدُهَا ... ومهودُ صِبْيَتِها ظهورُ جِيادِها
تَروى مناقِبَ فضْلِها أعداؤُها ... أبداً وتَسْنِدُه إلى أَضْدَادِها
يا غيرةَ اللهِ اغْضَبي لِنَبيه ... وتزَحْزَحي بالبِيض عن أَغْمادِها
من عُصْبَةٍ ضَاعت دماءُ محمدٍ ... وبَنيه بين يَزيدِها وزيَادِها
صَفَدات مالِ اللهِ ملءُ أَكُفِّهَا ... وأَكُفُّ آلِ اللهِ في أَصْفَادِها
ضَرَبُوا بسيفِ محمدٍ أبناءَه ... ضربَ الغرائبِ عُدْنَ بعد ذِيادِها
قِفْ بي ولَو لوْثَ الأزارِ فإنَّما ... هي مُهْجَةٌ عَلَق الجَوَى بفؤادِها

بالطَّـفِّ حيـثُ غـَدّا مُـراقُ دمائِهـا ومنـــاخُ أيْنُقِهـــا لِيَـــوْمِ جِلادِهـــا

القَفْــر مــن أَرْواقِهـا والطـيرُ مـن طرَّاقِهـــا والـــوَحْشُ مـــن عُوَّادِهـــا

تَجـرِى لهـا حَبَـبُ الـدُّمُوعِ وإنَّمـا حـبُّ القُلُـوبِ يكـنّ مـن أَمْـدادِها

يا يَـوْمَ عاشُـوراء كـم لـكَ لوعـةٌ تَـــتَرَقّصُ الأَحْشَـــاءُ مـــن إيقَادِهـــا

مـا عُـدْتَ إلا عـادَ قَلْـبِي غُلَّـةً حَـــرَّى ولـــو بَالَغْـــتُ في إبرَادِهـــا

يا جَـدُّ لا زَالَـتْ كَتائِـبُ حسـرةٍ تَغْشَـــى الضـــميرَ بِكرّهـا وطِرَادِهـا

أبــداً عليــك وأدمــعٌ مســفوحةٌ إن لم يُراوِحُهـــا البكـــاءُ يُغادِهـــا

هــذا الثّنَــاء ومــا بَلَغْــتُ وإنَّمـا هــي حَلْبَــةٌ خَلَعــوا عَلَيْــكَ جوادَهـا

أأقــولُ جــادَكُم الربيــعُ وأنْــتُم في كـــلِّ منزلـــةٍ ربيـــعُ بلادِهـــا

أمْ أَسْـتَزِيدَ لكـم عُـلاً بِمَنـائِحي أيـنَ الجبَـالُ مـن الـرُّبَى وَوِهَادِهـا

كيفَ الثَّنَاءُ على النَّجومِ إذا سَمَتْ فـوقَ العُيُـونِ إلى مَـدَى أَبْعَادِهـا

أَغْنَىَ طُلُوعُ الشَّمْسِ عن أَوْصَافِها بِجَلاَلِهـــا وضِـــيَائِها وبِعَادِهـــا

وفاته: كان للحقيقة المرة التي اصطدم بها الشريف الرضى وخيبته وفشله فيما كان يسعى إليه أثر سيء في نفسه وفي صحته، فأخذ جسمه يذُبل شيئاً فشيئاً، وشرعت قواه في التدهور والانحلال يوما بعد يوم. وسرعان ما اختطفته يد المنون وهو في شرخ الصبا. لقد مات حزينا ساخطاً دهره، ناقماً على الدنيا وما فيها ومن فيها. أدركته المنية في يوم الأحد سادس المحرم سنة ٤٠٦ هـ ببغداد فجزع أخوه المرتضى جزعا شديداً حتى أنه لم يشترك في الصلاة عليه ولم يستطع حضور دفنه. وصلى عليه الوزير فخر الملك وكثير من العظماء والنبلاء ودفن بداره بالكرخ ثم نقل إلى مشهد الحسين بكربلاء حيث دفن بجوار قبر أبيه. وقد رثاه أخوه المرتضى بقوله:

يا للرجـالِ لفَجْعَـةٍ جَـذَمَتْ يَـدى وَوَدِدْتُ لـو ذَهَبَـتْ عَلَّـى برأسـي

ما زِلتُ أصدُر وردَها حتى أتَتْ فَحَسوْتُهَا في بعض ما أنا حاسي
ومَطَلتها زَمَناً فلَما صَمَّمَتْ لم يُثنها مَطْلِى وَطُولُ مِكتسي
للهِ عُمْرُكَ من قصيرٍ طاهرٍ ولَرُبَّ عُمرِ طَالَ بالأَرْجَاسِ

ورثاه تلميذه مهيار الديلي بأكثر من قصيدة ومن ذلك قوله:

بكر النعيُّ فقال: أرْدى خيرُها إن كان يَصُدق فالرّضى هو الرَّدِى
عادت أراكة هاشمٍ من بَعْده خَوَاراً لفأس الحاطِب المتَوقدِ
فجِمعتْ بمُعْجِزِ آيةٍ مَشْهُودَة ولَرُبَّ آياتٍ لهَا لم تُشْهَدِ
كانت إذا هي في الإمَامِة نوزِعَتْ ثم ادَّعَتْ بك حَقَّهَا لم تُجْحَدِ
تَبعَتْكَ عاقِدةً عليكَ أمورَها وعُرَى تميمِك بعدُ لَمَّا تُعْقَدِ
ورآك طفلاً شيُبها وكهولُها فتَزَحْزَحُوا لك عن مكان السَّيّدَ
أَنْفَقْتَ عمرَ: ضائعاً في حِفْظِهَا وَعَقَقْت عيشَك في صَلاحِ المُفسِدِ
كالنَّارِ للساري الهدايةُ والقِرى من ضوَئِها ودُخانُها للمُوقِدِ

(٩) مهيار الديلمي

هو أبو الحسين مهيار بن مرزويه الكاتب الفارسي الديلمي الشاعر المشهور.قال ابن خِلِّكان «كان مجوسيا فأسلم، ويقال إن إسلامه كان على يد الشريف الرضي أبي الحسين مُحَمَّد الموسوي وهو شيخه وعليه تخرج في نظم الشعر».

علاقته بالشريف الرضي: كان مهيار يحضر دروس العلم التي كان يعقدها الشريف الرضى لكثير من الشبام فتيسر له أن يلم بقسط وافر من الأدب نظمه ونثره. وقد نشأت بين الأستاذ وتلميذه علاقة ود أخذت تثوى يوما بعد يوم، حتى أن مهيار كان يعلق كثيراً من الآمال على أستاذه. ولما مات الشريف الرضى رثاه مهيار طويلا.

إسلامه وتشيعه: وكان من أثر العلاقات القوية بين الشريف الرضي ومهيار أن أستطاع الأستاذ أن يحبب إلى تلميذه الدين الإسلامي، فكان إسلام مهيار على يد أستاذه.

أما تشيعه فقد بدا منه قبل أن يتخذ الإسلام دينا. وقد مدح الطالبيين ورثى عليا والحسين حينما كان على دين المجوسية، فمن ذلك قوله

تَقَضْتُمْ عُهُودَه في أهْلهِ ... وحُلْتم عن سَنَنِ المراسِم
وقد شَهِدتم مقْتَلَ ابن عمّه ... خيرِ مُصلٍ بَعدَه وصائِم
وما استَحَلَّ باغِياً أمَامكم ... يزيُد بالطَّفَ من ابن فاطِم

ولما أسلم غلا في تشيعه غلوًّا كبيرا وأفرط في سب الخلفاء الأول إفراطاً ألحقه بالسيد الحميرى وقد وصل إلينا شعر مهيار كاملا فرأينا ما جرى على لسانه من طعن ولعن. ومن ذلك قوله:

هذِى قضايا رسولِ اللهِ مُهَملَةٌ ... غدراً وشملُ رسولِ اللهِ منْصَدِعُ
والناسُ للعهدِ مالا قُوا وما قَرَبوا ... وللخيَانِة ما غَابُوا وما شَسَعُوا
وآله وهُمُ آلُ الإلهِ وهمْ ... رعاةُ ذا الدينِ ضيمُوا بعده ورُعُوا
ميثاقُه فيهمُ مُلقَّى وأُمَّتُه ... مع من بَغاهُم وعَادَاهُم لهُ شَيَعُ
تُضَاع بَيْعَتُه يومَ الغدير لهم ... بعد الرّضا وتُحاط الرُّومُ والبِيَعُ
مُقْسِمينَ بأيمان هم جَذَبُوا ... بيُوعها وبأَسيافِ همُ طَبعُوا
ما بينَ ناشرِ حبلٍ أمس أبرمَه ... تُعد مسنونةً من بعدِه البدعُ
وبين مُقْتنِصٍ بالمكرِ يخدَعُه ... عن آجلٍ عاجلٌ حُلْوٌ فينخدِعُ
وقائل لي عليٌّ كانَ وارثَهُ ... بالنصّ منه فهل أعطَوْهُ أم مَنَعْوا
فقلتُ كانت هناتٌ لست أذكُرهَا ... يجزى بها اللهُ أقواماً بما صَنَعُوا
أبلغْ رجالاً إذا سمَّيتهُمْ عُرِفُوا ... لهم وجوهٌ من الشحناء تُمْتَقَعُ

توافَقــوا وقنـــاة الـــدينِ مائلـــةٌ فحينَ قامتْ تلاحَوْا فيه واقتَرعُوا
أطـــاعَ أولهُـــمْ في الغـــدر ثانـــيهم وجـــاءَ ثالِـــثُهم يقْفُـــو وَيَتَّبِـــعُ
قِفُـوا علـى نظـرٍ في الحـقّ نَفْرِضُــه والعقـلُ يفضـلُ والمحجـوجُ ينقَطِـعُ
بأيِّ حكـــــم بَنُـــــوه يتبعُـــــونكم وفخُـركم أنكـم صَـحبُ لـه تَبَـعُ
وكيـفَ ضـاقَتْ علـى الأهلـين قرْبَتُـهُ وللأَجَانـبِ مـن جَنْبَيْـهِ مُضْـطَجعُ
وَفَـــيمَ صـــيَّرْتُمُ الإجمـــاعَ حُجَّـــتَكم والنَّاسُ ما اتَّفَقُوا طوعا ولا اجْتَمَعَوا
أمـــرُ علـــيِ بعيـــدٌ مـــن مشـــورَتِهِ مســـتكرهٌ فيـــه والعبـــاسُ يمتَنِـــع
وتدَّعيـــهِ قـــريشٌ بالقرابـــة والـــ أنصـــارُ لا رُفُـــعٌ فيـــه ولا وُضُـــعُ
فـأَيُّ خُلْـفٍ كخُلْـفٍ كـان بيـنكم لـــولا تُلَفَّـــقُ أخبـــارٌ وَتُصْـــطَنَعُ

ومنها:

إنكـــارُهم يا أمـــير المـــؤمنين لهـــا بعـد اعـترافِهِمُ عـارٌ بـه ادَّرَعُـوا
ونكـثهم بـكَ مَـيْلاً عـن وَصِـيَّتِهم شَـرْعٌ لعمـركَ ثانٍ بعـدَه شَـرَعُوا
تركـت أمـرا ولـو طالَبْتَـهُ لـدَرت مَعـــاطسٌ راغمتـــه كيـــف تجتَـــدِعُ
ليُشْـرِقَنَّ بحلـو اليـوم مـرُّ غـدٍ إذا حصدتَ لهم في الحشر ما زَرَعُوا

فمهيار في هذه القصيدة قد تعصب لعلي وذهب إلى أبعد حدود التعصب فطعن في الإجماع وأنكر صحته. وذكر أن النبي عهد إلى علي بالأمر يوم غدير خُم وقد مر بنا ذكر ذلك وأن الصحابة غدروا وعصوا الرسول واغتصبوا حق علي فأطاع أبو بكر في الغدر عمر، ثم جاء عثمان يمشي على آثارهم. وهؤلاء كما يقول مهيار سيحملون وزرهم يوم القيامة وسيحاسبون على ما أتوا حسابا عسيرا. قيل له: يا مهيار، انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية، قال: وكيف ذلك؟ قيل: لأنك كنت مجوسياً فأسلمت فصرت تسب الصحابة.

***

وقد رثى مهيار الحسين بجملة قصائد ومدح عليا وسرد كثيراً من مناقبه في شعر بديع، ودافع عن حقوقه في الخلافة دفاعا حارا مؤثرا ومثال ذلك قوله في مدح آل البيت.

لئن نامَ دهري دون المنى ... وأصبحَ عن نَيْلِها مُقعدِى
ولم أُلْكِ أحمد أفعالهَ ... فلي أسوةٌ ببمي أَحمدِ
بخيرِ الورى وبني خيرِهم ... إذا ولدُ الخير لم يولدِ
وأكرم حي على الأرض قام ... وميت توسد في ملحدِ
وبيت تقاصر عنه البيوت ... وطال عليا على الفرقدِ
تحوم الملائك من حوله ... ويصبح للوحى دار الندِى
ألا سَل قريشا ولم مِنهُمُ ... من اسْتَوْجَبَ اللومَ أو فنِّدِ
وقل: ما لكم بعد طُولِ الضَّلاَ ... لِ لم تَشْكُرُوا نِعمةَ المُرْشدِ
أتاكُم على فترةٍ فاستقامَ ... بكم جائرينَ عن المَقْصدِ
وولَّى حميدا إلى ربِّه ... ومن سنَّ ما سَنَّهُ يُحمدِ
وقد جعلَ الأمرَ من بعدِه ... لحيْدَرَ بالخبرِ المُسْنَدِ
وسماه مولًى بإقرارِ مَنْ ... لو اتَّبَعَ الحقَّ لم تَجْحَدِ
فمِلْتم بها حَسَدَ الفضلِ عنه ... ومن يَكُ خيرَ الورَى يُحسَدِ
وقلتم بذاك قضى الاجتماعُ ... ألا إنَّما الحقُّ لِلْمفرَدِ
يَعِزُّ على هاشِمٍ والنبيِّ ... تلاعُبُ تيمٍ بها أوعدِى
وإِرثُ عليَ لأَولادِه ... إذَا آيةُ الإرثِ لم تُفْسَدِ
فمن قاعدٍ منهمُ خائفٍ ... ومن ثائرٍ قام لم يُسْعَدِ
تسلَّطُ بغْيا أكُفُّ النِّفَا ... قِ منهم على سيِّدٍ سيِّدِ
وما صُرِفُوا عن مُقَامِ الصلاة ... ولا عنِّفوا في بني (١) المسجد

(١) جمع بنية.

أبـــوهُم وأُمهـــم مـــن عِلْمـــ ـــتَ فـــانقصْ مفـــاخرَهم أَوزِدِ
أرَى مـــن بعـــدِ يـــوم الحســـين علـــيلاً لـــه المـــوتُ بالمرصـــد
ومـــا الشّـــرك لله مـــن قبلِـــه إذا أنـــت قِســـت بمُسْـــتَبْعَدِ
ومـــا آلُ حـــربٍ جَنَـــوا إنَّمـــا أعـادوا الضَّـلالَ علـى مـن بـدى
ســـيعلمُ مـــن فـــاطمُ خصـــمُه بأيِّ نكـــال غـــدا يرتـــدي
ومـــن ســـاءَ أحمـــدَ ياســـبْطَه فبـــاء بِقَتْلِـــك مـــاذا يـــدى؟
فِـــداؤُك نفســـي ومَـــن لي بـــذا ل لـــو أنَ مولًـــة بعبـــدٍ فُـــدِى
أنا العبـــدُ والأكُـــم عقـــده إذا القلـــبُ بالقلـــب لم يُعقـــد
وفـــيكم وِدادي ودِيـــني معـــاً وإنْ كـــانَ في فـــارسٍ مولِـــدي
خصـمت ضـلالي بكـم فاهتـديتُ ولـــولاكم لم أكُـــنْ أهْتـــدِي

وهكذا ترى أن مهيار يضمن كل ما قاله في آل البيت كثيراً من المطاعن والشتائم في بعض الصحابة ولن تجد له قصيدة واحدة مما نظمه في هذا الباب خلت من هجوم عنيف على الشيخين.

وفاته: توفى مهيار في سنة ٤٢٨هـ.

(١٠) ابن هانيء الأندلسي

هو محمَّد بن هانيء بن محمَّد بن سعدون الأندلسي. يكنى أبا القاسم أو أبا الحسن. وقيل له ابن هانيء الأندلسي تمييزاً له عن ابن هانيء الحكمي الشهير بأبي نواس.

مولده: ولد باشبيلية في سنة ٣٢٠ هـ.

شاعريته: قال ابن خلكان: «هو أشعر شعراء المغرب على الإطلاق من المتقدمين والمتأخرين ولأجل ذلك يقال له متنبيء الغرب».

وقال الفتح بن خاقان: «هو علق خطير، وروض أدب مطير، غاص في طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون، وبهرج بافتنانه فيه كل الفنون، وله نظم تمنى الثريا أن تتوج به وتقلد، ويود البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولد».

تشيعه: رحل ابن هانيء من الأندلس إلى شمال إفريقيا ومدح المعز وأصبح من خواصه المربين إليه. وقد ارتفعت مكانته في عين الخليفة الفاطمي وعلت منزلته فأجله واحترمه ومنحه جزيل العطاء.

ويعتبر شعر ابن هانيء سجلا لمعتقدات الفاطميين وآرائهم ومذاهبهم ومثال ذلك قوله:

أنت الورَى فاعمر حَياةَ الورَى ... بِاسمٍ من الدَّعْوَةِ مُشْتَقّ

فالشيعة يعتقدون أن الإمام يقوم مقام النبي في دعوة الناس إلى الحق. والذي يقبل الدعوة يسمى المستجيب.

وقوله:

سَقَيْتَ فلا لُبَّ اللبيبِ مُعَطَّشٌ ... لّديك ولا كافُوَرَةُ العَهْدَ تَسْبَخُ

والمتسجيب لا يدخل في الدعوة إلا إذا أخذ عليه العهد والميثاق. وقوله:

قد كان يُنْذِرُ بالوعيدِ لطولِ ما ... أَصْغَى إلَيْكَ ويَعَلَمُ التَّأوِيلاَ

فالشيعة يعتقدون بأن آيات القرآن تحتوي على معاني خفية لا يدرك كنهها إلا الإمام الذي تلقى علمها عمن سبقه من الأئمة. وقد كرر ابن هاني هذا الاعتقاد في موضع آخر فقال.

أهْلُ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ والهدَى ... في البَيِّنَاتِ وَسَادَةٌ أَطهارُ

والـوحيِ والتأويـلِ والتحليـلِ والتـ   حـــريمِ لا خُلْـــفٌ ولا إنْكـــارُ

وقال:

مـاذَا تُريـدُ مـن الكِتـابِ نواصِـبٌ   ولـــه ظُهـــورٌ دُونَهَـــا وبُطُـــون؟

فالشيعة يرون أن لكل ظاهر باطنا خفي عن الناس لأن عقولهم لا تستطيع إدراك علم الباطن الذي هو سر الله المصون الذي يجب أن يظل مكتوما عمن لا يستحقه. قال.

إذا كانـت الألبـاب يقصـر شـأوها   فظلـــم لســـر الله إن لم يُكـــتَّمِ

والشيعة يعتقدون بالوصِيِّ الذي وصاه النبي بالقيام بالأمر من بعده وفي ذلك يقول ابن هانيء.

تـــؤم وصـــيَّ الأوصـــياء ودونـــه   صـــدور القنـــا والمرهفـــات البواتـــك

ووجود الإمام ضروري في نظر الشيعة من ثلاثة أوجه ،أولها أن الله لما أرسل رسوله إلى الناس ليهديهم إلى صراطه المستقيم، لزم أن يكون في كل زمان من يقوم بوظيفة النبي من هداية الخلق ونشر الأمن والعدل. وثانيها أن لغات الناس متفرقة فلا يفهم بعضهم لغة البعض، فوجود الإمام ضروري بيفهم الناس شؤون دينهم كلٌّ بلسانه ولغته. وثالثها أن الله خلق الجبال وجعلها أوتادا تمسك الأرض أن تميد بمن عليها، كذلك جعل الأئمة أوتادا للدين حتى لا يزول. وفي هذا ترى ابن هانيء يقول.

إذا كــان أمــنٌ يَشــملُ الأرضَ كلَّهــا   فــلا بُــدَّ فيهــا مــن دليــلٍ مُقَــدَّمِ
إذا كـــان تفريـــقُ اللُغَـــاتِ لِعلَّـــةٍ   فـلا بُـد فيهـا مـن وَسـيطٍ مُتَـرْجِم
وآيـــةُ هـــذا أَنَّ حَـــى اللهُ أَرْضَـــه   واكنهـا لم تَـرْسُ مـن غـير مَعْلَـمِ

ويقول في قصيدة أخرى.

لــولاكَ لم يكـــنِ التَّفَكُّـــرُ واعِظًـــا ... والعقـــلُ رشـــدا والقيـــاسُ دلـــيلاً
لـو لم تكـنْ سَـكنَ الـبلادِ تَضَعْضَـعَتْ ... وتَزَايَلَـــــتْ أركانُهـــــا تَـــــزْييلاَ

ومن مباديء الشيعة أن الإمام لا يقوم إلا بالنص ممن قبله كما لا يجوز قيام النبي إلا بإذن من الله. قال ابن هانيء.

وما ذاك أَخذًا بالفِراسةِ وحدَها ... ولا أَنَّـه فِيهـا مـن الظَّـنّ مُضْـطَّرُ
ولكـن موجـودا مـن الأثَر الـذي ... تَلَقَّـاهُ عـن حـبرٍ ضـنينٍ بـه حـبرُ

ويرى الشيعة أن الإمام هو سبب وجود الدنيا بجميع ما فيها وهو علتها ولولاه لما كانت أرض ولا سماء ولا شمس ولا قمر. قال ابن هانيء.

هـو عِلَّـةُ الـدنيا ومـن خلِقَـتْ لـه ... ولِعِلَّـــةٍ مـــا كانـــت الأَشْـــيَاءُ

وقال:

هـذا ضَـميرُ النَّشْـأَةِ الأولى الـتي ... بـــدأ الإلـــهُ وغَيبُهـــا المكْنُـــونُ
مـن أجـلِ هـذا قُـدِّر المقْـدُورُ في ... أُمّ الكِتـــاب وكُـــوّنَ التكـــوينُ

والإمام عند الشيعة من أكمل مخلوقات العالم جسدا وروحا وهو جامع لكل الفضائل والخيرات وجسده بريء من عيب وروحه سالم من كل نقصان. قال ابن هانيء.

فـــرغَ الإلـــهُ بِكـــلّ فَضـــيلةِ ... أَيامَ آيات الكتــــابِ تُفَصَّــــلُ

وقال:

وروح هُدًى في جِسم نورٍ يَمُدُّه ... شُعَاعٌ من الأَعْلى الذي لم يُجَسَّم

والإمام عندهم متصف بكل صفة يتصف بها النبي من كونه أمين الله

وهادي الخلق ووارث الأرض وشفيع الناس. فالإمام متصف بكل هذه الصفات. قال ابن هانيء.

هــذا أمــين اللهِ بــين عبــادِه وبــلاده إن عُــدَّت الأُمَنــاءُ
هـو الـوارِث الأرضَ عـن أبـوين أبٌ مصــطفى وأبٌ مُرْتَضــى

وقال:

لله مــن سَــببٍ باللهِ متصــل وظِلّ عـدلٍ على الآفـاق تمـدود

وقال:

هــذا الشــفيعُ لأُمــةٍ يأتِي بهــا وجُــدُودُه لجــدودها شُــفَعَاءُ

وهو معصوم مثل النبي لا يصدر منه خطأ ،ولا تبدو منه زلة لأنه ملهم من الله بأعظم درجات الإلهام ومؤيد منه بأكبر حدود التأييد وهو مؤتمن على هداية الخلق بعد الرسول. قال صاحبنا.

من كان سِيما القُدْسِ فوقَ جَبينِه فــأَنا الضَّــمِينُ بأَنّــهُ لا يَجْهَــلُ

وقال:

مُؤَيَّــدٌ باختِيــارِ اللهِ يَصْــحَبُه ولَـيْسَ فيمـا أَراهُ اللهُ مـن خَلـلِ

ومعرفة الإمام عند الشيعة واجبة الجميع لحديث يروونه عن النبي وهو «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية» وكذلك ولايته واجبه عليهم. فلا نجاة لأحد من الناس إلا إذا عرف الإمام وخضع لحكمه خضوعا تاما ومنحه ولاءه وإخلاصه. وقد أتى ابن هانيء بهذا في شعره حيث يقول.

لِيَعْرِفــك مــن أَنْــتَ مَنْجَاتُــه إذا مـا اتقــة اللهَ حــقَّ التُّقّــى

***

فَرضـانِ مـن صـومٍ وشُـكر خليفـة هــذا بهــذا عنــدنَا مَقْــرُونُ

لـو لَمْ تكُـن سَـبَب النجـاةِ لأَهْلهـا لم يُغْـنِ إيمـانُ العبـادِ فَتـيلا

***

لـئن كـان لي عـن وُدِّكـم مُتَـأخرٌ فمـالِيَ في التوحيـد مـن مُتَقَـدَّمِ

***

والإمام كما يرون مظهر نور الله الذي ينتقل من إمام إلى إمام فالله يتجلى بنوره في شخص الإمام. فإذا علمنا هذا استطعنا أن نفهم بسهولة قول ابن هانيء.

ومـا كنْـهُ هـذا النـور نـورُ جَبينـهِ ولكـنَّ نـورَ اللهِ فيـه مُشَـارِكُ
وبـدا تَلَقَّـى آدمُ مـن ربِّـه عَفْـواً وفَـاء ليـونُسَ اليَقْطِـينُ

***

مِنْ شُعلةِ القَبَسِ التي عرضت على موسى وقد حارتْ بـه الظَّلْمَـاءُ

***

ولقـد بَـراكَ فكُنْـتَ موثِقَـهُ الـذي أخـذ الكتـابَ وعهـدَه المسؤُولا

***

فالشيعة يقولون إن مُحَمَّداً والأئمة من ذريته أفضل جميع البشر وإن نورهم خلق قبل أن يوجد العالم وحيث أن نور الله أزلي ينتقل من إمام إلى إمام حتى اتصل بالمعز، فنور المعز هو النور الذي توسل به هؤلاء الأنبياء فاستجاب الله به دعاءهم.

***

وهكذا سار ابن هانيء في شعره على هذه الوتيرة، فلا عجب أن كان

لشعره طابع خاص ميزه عن غيره من شعراء الشيعة. فهو لم يرث الحسين ولم يذكر عليا ولا مناقبه، ولم يقصر شعره على هجاء الأمويين والعباسيين، ولم يتعرض للشيخين بطعن ولا سب، وإنما وقف شعره على نشر الدعوة للخلافة الفاطمية وبث مباديء العبيديين، وقد كان هذا من الأمور الطبعية لأن هذه الدولة الجديدة الناشئة أضحت في حاجة إلى تثبيت دعائمهما وتقوية مركزها، بعد أن أصبح الأمر بيد خلفائها. وليس أقوى من الشعراء في هذا المضمار ولا أقدر منهم. وقد وجد المعز في ابن هانيء خير نصير ومعين على نشر الدعوة الفاطمية وقد قيل إنه حزن حزناً شديداً لما سمع بوفاته.

مدحه للمعز

وقد مدح ابن هانيء الأندلسي المعز لدين الله الفاطمي بقصائد كثيرة أظهر فيها قوة ومتانة، ووفق فيها إلى أقصى درجات التوفيق. ومثال ذلك قوله من قصيدة:

وطفِقْت أسألُ عن أُغرَّ مُحَجَّل ... فإذَا الأنامُ جِبلَّةٌ دَهماءُ
حتى دُفعتُ إلى المعزِّ خَليفةً ... فعلمتُ أَن المطلبَ الخلفاءُ
جودٌ كأن أليمَّ فيه نفاثةٌ ... وكأنَّما الدُّنيا عليه غُثَاءُ
مِلكٌ إذا نَطَقتْ عُلاه بمدحِه ... خِرسَ الوفودُ وأفحم الخطباءُ
هو عِلةُ الدنيا ومن خُلِقَتْ له ... ولعلَّةٍ ما كانت الأشياءُ
من صفو ماء الوحْيِ وهو مُجَاجَةٌ ... من حوضِه الينبوعُ وهو شفاءُ
من أيَكةِ الفردَوْسِ حيث تَفَتَّقَتْ ... ثمراتُها وتَفيَّأَ الأَفْياءُ
من شُعلةِ القبس التي عُرِضت على ... موسى وقد حارتْ به الظلْماءُ
من معدِن التقديس وهو سُلالةٌ ... من جوهر الملكوتِ وهو ضياءُ
من حيثُ يُقتبسُ النهارُ لمبصرٍ ... وتُشَقُ عن مكنونِها الأنْباءُ

فَتَيقَّظوا من غَفلةٍ وَتَنبَّهَوا   ما بالصباحِ عن العيونِ خفاءُ
لست سماءُ اللهِ ما ترأوْنَها   لكن أرضاً تحتويهِ سَمَاءُ
أما كواكِبُها له فخواضِعٌ   تُخْفي السجودَ ويَظْهرُ الإيماءُ
والشمس ترجعُ عن سَناهُ جفونَها   فكأنها مَطروفَةٌ مَرْهَاءُ
هذا الشفِيعُ لأُمَّةٍ يأْتي بها   وجدودُه لجدودِها شُفَعَاءُ
هذا أمينُ الله بين عبادهِ   وبلادِه إن عُدَّتِ الأمناءُ
هذا الذي عَطفتْ عليهِ مكةٌ   وشعابُها والركنُ والبَطحاءُ
هذا الأغَرُّ المتأَلقُ الْمُـ   ـتَدَفِّقُ المتَبَلِّجُ والوَضَّاءُ
فعليهَ من سيما النبيّ دلالةٌ   وعليهِ من نورِ الإلهِ بهاءُ
ورثَ المقيمَ بِيَثْربٍ فالمنبَرُ الأَ   عْلَى له والتُّرْعةُ العَلياءُ
والخطَبةُ الزهراءُ فيها الحكمةُ الـ   ـغرَّاءُ فيها الحجَّةُ البَيْضَاءُ
للناسِ إجماعٌ على تَفْضِيلهِ   حتى اسْتَوى اللُّؤماءُ والكرماءُ
واللكنُ والفُصَحاءُ والبُعَدَاءُ والـ   ـقُرَبَاءُ والخُصَمَاءُ والشُّهَدَاءُ
ضَرَّابُ هَامِ الرومِ منتقماً وفِي   أعناقِهِم من جودِه أَعباءُ
تَجرِى أَيادِيهِ التي أَولاهُمُ   فكأنَّها بينَ الدماءِ دِماءُ
لولا انبِعاثُ السيفِ وهو مُسَلَّطٌ   في قَتْلِهِمُ قَتَلَتْهِمُ الأنْبَاءُ
كانت ملوكُ الأعجمينَ أَعِزةً   فأذَلَّها ذُو العِزَّةِ الأبَّاءُ
لن تَصغرَ العظماءُ في سلطانِهم   إلا إذَا دَلَفَتْ لهَا العُظَماءُ
جهلَ البطارقُ أنه الملكُ الذي   أوصى البنينَ بِيلْمهِ الآباءُ
حتى أرى جُهالُهم من عزمه   غِبَّ الذي شَهدتْ به العُلَماءُ
فتقاصروا من بعد ما حكم الرَّدى   ومضى الوعيدُ وشُبَّت الهَيْجَاءُ
والسيلُ ليسَ يَحيدُ عن مُسْتَنّهِ   والسهمُ لا يُدْلِى به عُلوَاءُ
لم يُشرِكُوا في أنه خيرُ الورَى   ولذِى البريةِ عندهُمْ شَرَكاءُ
وإذا أَقَرَّ المشرِكون بفَضْلهِ   قسْراً فما أدراك ما الحُنَفَاءُ

في اللهِ يسرى جُوده وجنودُه وعدِيدُه والعزمُ والآراءُ
أَوَما تَرى دولَ الملوكِ تُطيعُه فكأنَّها خَولٌ له وإماءُ
نزلتْ ملائكةُ السماءِ بنصْرِه وأَطاعَه الإصباحُ والإمساءَ
والفلْكُ والفَلَكُ المُدار وسَعْدُه والغَزْو في الدَّاماءِ والدَّماءُ
والدهَرُ والأَيامُ في تَصْرِيفهاَ والناسُ والخضراءُ والغبراءُ
أين المفَرُّ ولا مَفَرَّ لها ربِ ولك البَسيطان الثَّرى والماءُ
ولك الحوارِي المنشآتُ مَواخرًا تجرى بأمركَ والرياحُ رُخاءُ
والحاملاتُ وكلها محمولةٌ والناتِجاتُ وكلها عّذرَاءُ
والأَعْوَجِيَّاتُ التي إن سُوبَقَتْ سَبَقَتْ وَجَرْىُ المذْكياتُ غِلاءُ
الطائراُت السابحاُت السَّابقَا تُ الناجياتُ لهن اسْتُحِثَّ نَجاءُ
فالبأْسُ في خَمْسِ الْوَغى لكُمَاتِها والكِبرِياءُ لهن والخُيَلاَءُ
لا يُصْدِرون نحورَها يوم الوَغى إلاَّ كما صَبغَ الخُدُودَ حَيَاءُ
شُمُّ العَوَتاي والأُنُوفِ تَبَسَّمُوا تحتَ القُنُوسِ فأَظْلَموا وأَضاءُوا
لبِسوا الحديدَ على الحديدِ مظاهَرًا حتى اليَلامُق والدُّرُوعُ سَواءُ
وتَقَنَّعُوا الفولاذَ حتى المُقلةُ النجـ لاءُ فيها الُقلَةُ الحَوصَاءُ
فكأنَّمَا فَوقَ الأَكُفِّ بوارِقٌ وكأنما فوقَ المُتُونِ إضاءُ
من كلِّ مَسْرُودِ الدخارص فَوْقَه حُبُكٌ ومصقولٍ عليهِ هباءُ
وتعانَقُوا حتى رُدَيْنِتَّايهم عَطْشى وبيضُهُمُ الرِّقاقُ رِوَاءُ
أَعزَزْتَ دينَ اللهِ يا ابنَ نَبِيّهِ فاليومَ فيهِ تخمُّطٌ وإبَاءُ
فأَقَلُّ حظِّ العُرْبِ منك سَعادَةٌ وأَقَلُّ حظِّ الرومِ منكَ شَقاءُ
فإذَا بعثتَ الجيشَ فهو منية وإذا رأيتَ الرأى فهو قضاءُ
يكسو نداكَ الروضَ قبلَ أوانهِ وتَحيد عنكَ اللَّزْبَةُ الَّلاواءُ
وصفات ذاتِك منك يأخُذُها الوَرَى في المكْرمَاتِ فكلُّها أسماءُ
قد جالَتْ الأوهامُ فيك فدَقَّت الـ أفكار عنك فَجلَّتِ الآلاءُ

فْعَنَتْ لك الأبصارُ وانْقَادتْ لك الـ أقْـدارُ واسْـتَحْيَتْ لـك الأنـواءُ
وتَجَمَّعَتْ فيك القلوبُ على الرِّضىَ وتشَــيَّعَتْ في حُبِّــك الأَهْــواءُ
أنـت الـذى فصـلَ الخطـابَ وإنَّمـا بـك حُكِّمَت في مَـدحِك الشُّعَراءُ
وأَخَــصُّ منزلــةً مــن الشــعراءِ في أمثالِهــا المضـــروبةِ الحكمـــاءُ
أخـــذوا الكـــلامَ كثـــيرهُ وقليلَـــه قســـــــــمين ذا داءٌ وذاك دواءُ
دانُــوا بأن مــديحَهم لــك طاعــةٌ فـرض فلـيس لهـم عليـكَ جـزاءُ
فاســـلم إذا رابَ البريـــةَ حـــادثٌ واخلــدْ إذَا عَــمَّ النفــوسَ فَنَــاءُ
فيـــه تَنَـــزَّلَ كـــلُّ وحـــيٍ مُنْـــزَلٍ فلأَهــلِ بيــتِ الــوحيِ فيــه ثَنــاءُ
فتطــول فيـــه أكُـــفُّ آل محمـــدٍ وتُغَـلُّ فيـه عـن النَّـدى الطُّلقـاءُ
مازالــتَ تقْضـــى فرضَـــه وأمامـــه وَوَراءَه لَـــــك نائِــــلٌ وحِيـــــاءُ
حسـبي بمـدْحكِ فيـه ذُخْـراً للـوَرَى للنُسْــك عنــد الناسِــكين كِفَــاءُ
هيهـاتَ منـا شُـكر مَـا تُـولى ولـو شـكرتْكَ قبـلَ الألسـنِ الأعضـاءُ
واللهُ في عَلْيَـــاكَ أصـــــدقُ قائـــل فكـأنَّ كـل قـول القـائِلينَ هُـذَاءُ
لا تســـأَلَنَّ عـــن الزمـــانِ فإنَّـــه في راحَتَيْـكَ يـدورُ كيـف تشـاء

مدائح ابن هانىء كلها على هذا النحو. وقد كرر كثيرا من المعاني في قصائد مختلفة وردد ما أتي به هنا من الآراء والمبادىء في غير هذه القصيدة.

وفاته: توفى ابن هانىء في عام ٣٦٢ هـ وعمره ست وثلاثون سنة. وجد مقتولا وقد اختلف في سبب قتله.

المصادر

الملل والنحل – الشهرستاني

الفرق بين الفرق – عبد القادر البغدادي

الإمامة والسياسة – ابن قتيبة

الأغاني – الأصبهاني

أعيان الشيعة – الحسني العاملي

الفتوحات المكية – ابن عربي

يتيمة الدهر – الثعالبي

المنهج الحنيف – أحد رجال الطرق الصوفية

معجم الأدباء – ياقوت

نهج البلاغة – شؤح ابن أبي الحديد

نهج البلاغة – شرح مُحَمَّد عبده

نهج البلاغة – شرح ميرزا حبيب الله

تاريخ الأمم والملوك – الطبري

الأمالي – الشريف المرتضى

الأمالي – أبو علي القالي

العقد الفريد – ابن عبد ربه

السيرة – ابن هشام

مناقب آل أبي طالب – السروى المازندراني

الهاشميات – الكميت

طبقات الشعراء – مُحَمَّد بن سلام الجمحي

وفيات الأعيان – ابن خلكان

فوات الوفيات – مُحَمَّد بن شاكر

البيان والتبيين – الجاحظ

العمدة – ابن رشيق

الفهرست – ابن النديم

الملل والنحل – ابن حزم

الأوراق – الصولي

ديوان كثير

ديوان ابن الرومي

ديوان الشريف الرضي

ديوان مهيار الديلمي

ديوان ابن هانيء الأندلسي

الفهرس